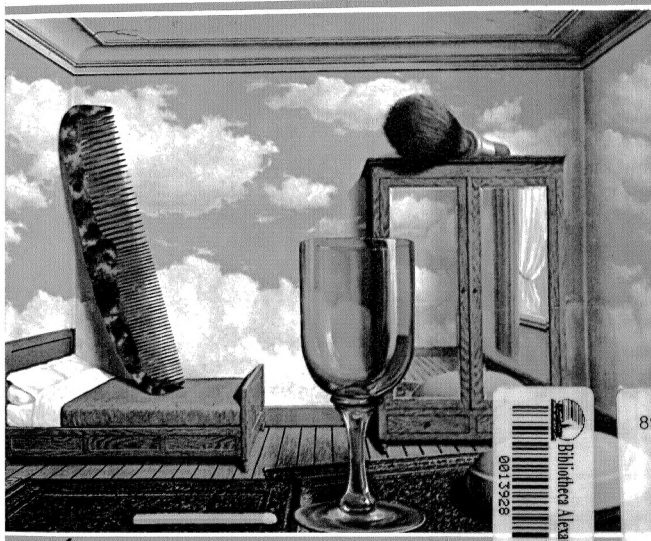


غَادَةُ السَّمَانِ لَا بَحْرَ فِي بَيْرُوتَ



منشورات غادة السمان



لا بھر فی بیروت

- لوحة الغلاف الاول للفنان رينيه ماجريت ، رسمها عام ١٩٥٢
- واسمها « قيم ذاتية » .
- الخطه للفنان حسين ماجد .
- تنفيذ الغلاف للفنان نبيل البقيلي

غَادَةُ السَّيَّانِ

لَا مَجْرَ فِي بَيْرُوتِ ..
قَصَصٌ



Organization of the Alexandria Library (OAL)
Alexandria, Egypt

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة
منشورات غادة السمان

بيروت - ص . ب ١٨١٣ ١١

تلفون ٣٠٩٤٧٠ - ٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى: تشرين الثاني ١٩٦٣

الطبعة الثانية: تشرين الأول ١٩٧٣

الطبعة الثالثة: آب ١٩٧٥

الطبعة الرابعة: حزيران ١٩٧٨

الطبعة الخامسة: حزيران ١٩٧٩

الطبعة السادسة: تشرين الأول ١٩٨١

الطبعة السابعة: كانون الثاني ١٩٨٥

الطبعة الثامنة: كانون الثاني ١٩٨٨

الطبعة التاسعة: تموز ١٩٩٣

الإهداء

أبي
وهذا أيضاً من نرف المركة
وهذا أيضاً لك أنت
فما زلت وحدك صديقى وفخرى
بإخلاص أرفعه لك
بعد أن انتظرت بإخلاص أن يكون لسواك
وانتظرت حتى لحظة الطلعة الأخيرة فيه
وحتى اللحظة الأخيرة
ظللت وحدك قبلة عطائى

غاده

نداء السفينة

العاصفة تشرق المدينة بالمطر والظلمة وزعيق الريح . غرقني خائفة مدفونة في أحشاء البناء ، الساعة تلهث فوق الحائط وتكاد عقاربها تشير الى الثانية عشرة . مكتبي المتخمة تتوهج بالتحدي ، والمطر يتطفل على النافذة ، وعلى وجهك الذي يطل أبداً خلف أية نافذة منذ عرفتك .

أمامي حقيبة سفر مفتوحة ستكون ممثلة بعد دقائق .. وورائي ساعة وحائط ومكتبة تمردت عليها لأني اخترت النافذة والمطر، والظلمة والمجهول، ووجهك الذي يطل أبداً خلف أية نافذة ، ولأن في صين ، وراء الثلوج وراء المطر ، وراء اللون والصوت والصدى ، قة منسية في آماذ الروشة اللامتناهية ، ولأننا سوف نبحث عنها ، سوف نذهب إليها ، سوف نغرق فيها ، وسوف ننطلق منها الى الحقائق الصلبة النائية ، ولن نعود وسوف نهوّم طيرين ، ذئبين ، ذرتين ، ولا شيء سوانا .

سيقولون هربا !

ولن نلتفت لنقول لهم اننا لم نهرب وإنما رحلنا حينما فقدنا إحساسنا تماماً بوجودهم .. انني أسمع مديري يصرخ : « تلك المجنونة ! كانت أكثرهن ثقافة واتزاناً وعملًا . »

ثم تتولى زوجته شرح الحكاية المثيرة للصدقات ، وما أكثر صديقاتها يوم تولم في الدار فضيحة : كنت أتوقع لها ذلك منذ البداية ، عانس ،

جميلة ، ولا أهل لها ، كتاب واحد في مكتبتها الضخمة يدفع بأي عاقل الى الجنون .

فليقولوا ما شاعوا ، يا ثيابي المنهاوية في الحقيبة الفارغة ، لن أتردد يا قة في صين ، يا وجهه خلف النافذة ، يا سأم أعوامي الثلاثين العذراء بين صياح مؤذن وناقوس كنيسة . حواء استيقظت ، فليسجد الغاب . لن آخذ معي أي كتاب . لتكن للمرة الأولى حقيبة أنثى !

الساعة تزداد وجيماً فوق الحائط . دقائقها الاثنتا عشرة تكاد تحل المدينة . لا ريب في أن زوجتك الآن نائمة ، وأولادك نائمون ، وأنت تنسل من غرفتك هارباً منها ، من الحكايا الرتيبة اللرجة المكسدة في ثنيات منخريها ، من أرجوحة السأم المعلقة في كل زاوية من الزوايا . تحمل حقيبة هياتها منذ النهار ، وتنسل نحو الباب بهدوء لتتظرن عند الشجرة قرب بيتك . لن أتاخر ، يا صدرك العريض اني قادمة . أحاول أن أحمل حقيقتي بعد أن أغلقها ، انها ثقيلة تشدني الى الأرض ، الى غرفتي ، وبيتي ، انتزعها وأخرج من الغرفة . أذرع خفية تمتد منها ، تحاول أن تقبض عليّ ، أن تعيدني الى سكنية يأمي فيها . لن أبقي هنا أجتر عمراً عقيماً أبله الانتصارات .

أهبط الدرج بحقيبتني ، ترى في أية غرفة سوف أفتحها ، وعلى أي مشجب سوف أعيد ترتيبها ؟

لا أدري لماذا يغرني إحساس كلي مكثف بأن ذلك لن يكون أبداً . أتمزق تلك المواجس وأنا أفتح باب سيارتي الصغيرة . ألقني بالحقيبة على المقعد الخلفي . أدير المحرك . أتمهل دقائق ريثما أطفئه . انطلق اليك . التفت نحو بيتي . اودع استكانته في التواضع الصامت الدليل بين بقية البيوت . اني أنفجر ، أتمزق شوقاً للرحيل . ثلاثين عاماً وأنا أبحث وعبثاً أبحث ، وأنا أظن أحياناً انني وجدت شيئاً .

كنت فأرة مكتبة . رقصت مع شياطين « ميلتون » ، وطلعت بالبحيم مع دانتي ، وزحفت في أزقة باريس مع زولا ، وتهكمت مع فولتير ، وماذا بعد ؟ لا شيء ؟ لا شيء سوى انني لم أجد الحقيقة التي تسندني . تعيد خلقي ، تميزني ، تمنحني خصوصيتي في هذا الضياع الرحب . لا شيء . ميدوزا الثقافة حجرتي ، زادتي تشويهاً ، وظل السؤال يمزقني : وماذا بعد ؟ وما معنى هذا كله ؟

حتى التقينا ، فعرفت أن الحقيقة الوحيدة هي الرجل المحب المحبوب . لا ، لست نادمة ، أنت فرصتي الأخيرة والوحيدة . ولن أتردد

اتجه صوب المكان الذي اتفقنا على اللقاء فيه . أكاد أصل . أرى بيتك غارقاً في سحب الكسل والموت . أنت شهاب يضيء عند الشجرة ، أعجاز بيتك أتوقف أمامك . ألتقطك . حقيتي تتأوه نشوى تحت ثقل حقيتك التي ألقيت بها الى المقعد الخلفي وأنت تجلس الى جانبي .

من جديد يتوهج جو السيارة .

من جديد تطل العيان العجيبتان ، من جديد أخفف من سرعة السيارة لألتفت الى وجهك ، الى الثنايا المعنقة التي أغرق نفسي فيها ، فأحس برف الحب ، بتزق الحب ، وأحس بك ، بكيانك ، بأشياك المحبة تحوطني ، تعلم خيبة أعوامي ، تعلمني من المكتبة ومن الشركة ، من ليلة حزينة حزينة ومن شارع مقفر . تعلم شعبي فإذا أنا قطعة محملية تطمر نفسها في رماذ موقد مطلقاً يشع دفئاً عذباً . أحب رماذك أيها القابع الى جانبي . يدك تتسلل لتفرق في شعري . تنعشي الأنامل المبدعة المدغدغة ، الأنامل التي طالما أبدعت حكايا للناس ، الأنامل التي ترحل اليوم لتكتب قصتها هي ؛ قصتها وحدها ؛ لتروي كيف تتمرد نفوسنا فنهب من صيغنا الاجتماعية من قوالنا في متاحف الشمع ؛ نمزق أربطة ثقافتنا ؛ ونتملدى عقم الأشياء ، فنصر على حقيقتنا ؛ ونبحر مع الليل ؛

مع الزوينة ، كي نطم جدار العجز والاستسلام ، وننطلق خارج أسوار
المدينة اللامرية نكافح عدواً نجعله هو بعضنا .

تمس : « الى أين ؟ » .

أحب صوتك ، أتلد بطعم الصدى في صدري . الى لا مكان ، الى
لا زمان ، الى حيث أغنية الجبل الزرقاء الداكنة .

وتتلاقى نظراتنا . في مد الموجة قرارة يأس . في نزق عفتنا للذعة
مرارة كأنما نحن نؤمن ، ونرفض أن ندري ، أن لا مفر من أسوار
المدينة .

وأعود بنظراتي الى الشارع الذي يحملني بعيداً عن أسوار المدينة ،
أتمش وأنا أرى عجلاتي تأكل منه ، وتعود تسألني : الى أين ؟
الى ما وراء الثلج ، ما وراء الألوان والأصوات !
البارحة ..

البارحة لما انصهر الوجود كله ليستحيل الى أنت تودعني عند الشجرة ،
قلت لي كما لا يفعل أبطال قصصك : « لماذا لا نرحل ؟ »

ولم تبد لي فكرتك غريبة كما كانت تبدو لبطلات قصصك . فأنا
أعرفك كما أعرف نفسي ، وأعرف اننا وقتان فقدتا كل ارتباط بأية
شجرة في البستان ، وان أية نسمة يمكن أن تحملها بعيداً الى يدها ، الى
بحر ، الى قة ، الى لا مكان . كما تحملنا الآن شلالات المطر التي تزداد
عنفاً وشراسة ، لحظة بعد لحظة ، كأنما نحن نتغلغل نحو مركز الأعصار .
انك تسترخي في مقعدك بينما تطفو على وجهك أحزان عتيقة ، لا تقل
شيئاً . اني أفهمك . اني أسمعك تردد كما تردد دائماً جنباً يرتسم هذا
الحزن في ملاحك :

« لقد تحنطت يا سنية .. أحس إحساساً مفاجئاً بأنني سندية عجز
مقطوعة ميتة الجذور ، في جبل منبؤ كانت له أبعاد غابات. عمري ألف
عام من سأم وغربة . حيناً أنظر في عينيك ينشق خريفي عن برعم . »

انك تلتصق بي كطفل متعب .. لا لم تستهلك نفسك ، غداً تتجدد في صنين !

أظل أنطلق بسرعة في الدرب الى لبنان ، ألحظ انك تعالج حلقة في بنصر يدك اليسرى ، تحملها وترمي بها من النافذة . الى يدك أشرق النظر . ما زلت أرى حلقة صغيرة مضبنة كوشم الجمر تحيط باصبعك في المكان الذي كان يشغله الحاتم .

غفر أمن الحدود يضيء . نتوقف نبرز هوياتنا . تتحرك الملامح المتأسكة لضابط ، فتتشق عن فم يقول : « الطقس ينذر بعاصفة ، وقد تغلق الطريق في أية لحظة . من الخير لكما أن تعودا » .

لا نجيب ، نمضي بعض لحظات ونظراته المستكبرة تلاحقنا . تنقضي عدة دقائق . نتوقف مرة أخرى - ضابط آخر . بعد لحظات نطلق في سهول شتورة نحو جبال لبنان . حطمتنا جدار الصمت ، جدار الأيدي العتيقة ذات الأصابع المشيرة أبداً الى وجوهنا .

بدأت الدرب تصبح صعبة . الصعود شاق. القيادة في هذا الليل الوحشي متعبة . أنت صامت ، ماذا بك ؟
تهمس متعباً : « الى أين ؟ »

ولماذا الى أين ؟ ما الفرق ؟ غداً ، بعد غد ، في لحظة ما سوف نكون هناك في القمة ، وسوف نخشع لأغنية الجبل الزرقاء حيث تتطابق الحقيقة المكثفة مع الأسطورة في واقع لم نألفه . وهناك سوف نبدأ انفصالنا النهائي عن الأشياء التي لم نخترها يوم ولدنا . سوف نصنع وطننا ولغتنا ، وسوف نتصعد ، نمود كما كنا قبل أن تفرض علينا قوى عديدة ، طيرين ، ذئبين ، سمكتين ، انسانين مطلقين حرراً جبهما من القوالب المسبقة والآخرين ، المطر يشتد . السيارة تتأوج كأنها بين فكي شلال أھوج . الريح تصفعها تركلها من كل جانب. غضبة الليل العاصف تأكل من أنوارها . بدأت أغرق في إحساس مربع أكيد : اني أقود دون

أن أرى شيئاً ! تعب حقيقي ملتحق ينبثق في جوارحي كلها. ضوء السيارة يفرق أحياناً في هوات مرعبة لوديان فاغرة الأفواه من جانبي الطريق . وبلا وعي مني أضغط بقدمي على الكابح . أتبته غيف . رغم ذلك كله ، ورغم انني أسمع صرخات عشرات الناس الذين انزلقوا الى الوديان في مثل هذه الليلة ، فإن فكرة العودة تبدو سخيضة ومهينة . اذا سقطت فلن أصرخ . المدرب ضيق ينزلق بين نارة وأخرى على شفة الهوة ، أسيطر على العجلات وأنت صامت الى جانبي وقد بدأت تشع خوفاً . ماذا بك ؟

ونهمس متعباً : « الى أين ؟ »
وأود من قلبي كله أن أقول لك الى لا مكان الى لازمان ولكنني أحص
ان يدي المسكتين بالمقود تؤلمانني وان عليّ أن أحدد مكاناً أريحها فيه .
— الى أين ؟

لا أجيب ، أغرق في عجز مكابر ، على أية حال سوف نذهب ،
لن نعود . لن نقهر ولو هزمنا . لن نتوقف . انتمت اليك حيناً أصل
الى هذا الحد من التصميم . في النور الباهت أراك تمدق الى وجهي بذعر
حقيقي ملذ . وفي عينيك أرى صورة الفتاة التي تأملها بمنونة الملامح
هو جاء النظرات .

ويزيدني رعبك رغبة ضارية لتحسس مدى قوتي . اني أعبد نفسي .
أخافها . كيف انبثقت هكذا فجأة دنيا من الرفض ؟
أسمعك تهمس بعجز : انها ليلة رهيبة ، والعاصفة على ما يبدو شاملة .
لقد نسيت أن أغلق نافذة غرفة الأولاد قبل رحيلي .

نافذة غرفة الأولاد ؟ أما زلت تسمع صوتها والريح تتلاعب بها حتى
الآن ؟ وأنت أيضاً ما زلت ساقطاً في شرك الحياة العادية ؟ وروايتك ،
روايتك الحقيقية لن تكتبها . والحقيقة الكبرى لن تعرفها ما دمت عاجزاً
عن اغتيال شخصيتك الثانية التي تتقاسمها مع الناس كلهم ، مع أنفه الناس !

تقترب ، لا أقول لك شيئاً ، أدرك بأسف حقيقي أنك دون رحلتنا
وانك عاجز عن الانسلاخ وعاجز عن الاستمرار. جلدورك ما زالت هناك
عقيمة ، تدمر فلك ، تنكس في غرفة أطفالك ، تلبس حول قوائم
الأسرة ، تتمسك بالأغطية كي لا تنحسر عنهم ، وتلاحق النوافذ المتحركة
فتنقلها . أسألك وأنا لا أعني ما أقول : هل نعود ؟

تجيب لا أدري . أنك تتمزق ، أعرف أنك تتمزق ، أيقظت العاصفة
الزوج الضئيل في نفسك فحييت إليك أركان السأم الدافئة . أما أنا
فجدوري هناك في صين. أسمع في العاصفة أصداء أغنية الصخور ذات
الانقصال الحاد الصارم عما حولها .

أزيد في سرعة السيارة . صين يولد في كل منحي حيث يسطم الموت
بين عجلات السيارة . أنك عاجز عن متابعة انطلاقي . أنك طفل، أحس
أنني أخطفك ورائي كوكباً ساكناً مطلقاً يرقب برعب سخرية شهاب يسطم
عمرقاً . أنك طفل من مدينتهم . خطفتك جنية من الغابة القرية وجاءت
بك لتعيش معها في قمها وحاولت تمويدك طعام الجنيات المجيد ، لكنك
تبكي طالباً ضرع أمك . وفي المدينة ملايين الضروع ، بودي أن أعيدك.
لكنني أنا لن أعود !

تهتف بي مدعوراً لصرير الكابح المخيف : ماذا دهالك يا سنية ؟
هل جنت ؟ قفي قليلاً ودعينا نتحدث !

نتحدث ؟ ولماذا ؟ كي نضج همجية حقيقتنا ؟ كي تعيدني الى أريطة
موميائي ؟ الى أجواء متحف الشمع الذي هربنا منه ؟ لا . لن أحدثك.
ألا تشعر بنشوة الرعب والرفض ؟ نشوة التحدي والقسم ؟ نشوة الثورة
حيناً تجدد خلقنا . اني انطلق ، أحترق ، يا نشوة الصنوبر حيناً تلفحه
النار بعد ما تنكس ثلاثين عاماً في غازن الخطب .

تتمدد يدك الى المدياع وتفتح فجأة . لا شيء سوى أصوات مشوشة
مختلطة . ما زالت يدك تبحث عن مهمة لإنسان . عن همسة من عالمهم.

لكن أغانيهم ونكاتهم وبرامجهم قد استحالت الآن الى لا شيء . في العاصفة تسقط الأتعة وتتهاول الأشياء المزيفة .

محطة واحدة . صغير واحد مقطوع هو كل ما استطاع أن يقاوم العاصفة ويظل من إحدى المحطات . انك تثبت الابرة بصعوبة عليها ربما تلتقط أنفاسك وتجتلي معانيه .

الزوجة أمست أثقل من أن تحملها سيارتي ، ويداي بدأتا تسترخيان فرق المقدود ، لكنني راضية بدنيا الجبروت التي فوجئت بها لحظة تحديت الأصابع المشيرة وخرقت أسوار مدينتنا . لكنني أتعذب . أحس أن جسدي بدأ يحزن فكري . وبأن طاقتي الآدمية لن تستطيع اللحاق برغبات الجنية وثوراتها في أعماقي ، يا حسرة آلهة مكتوب عليها أن تتعب وتشقى وتموت . لا مفر من ذلك سلاسل آدميتنا . يا رأسنا بين النجوم .

السيارة تتأوج بغرابة كأنها تعاني عطلاً ما . أنت تترك المدياع وتمسك بمعدك ، تظل الابرة ثابتة على المحطة الوحيدة العجيبة التي تقدم لنسا العالم الخارجي ، نسمع صغيرها بوضوح رغم عويل العاصفة ، صغير رمزي لسفينة . نداء الاستغاثة ، صغير رتيب حاد يرسل رموزاً لكلمات مقتضية مرعبة : أقتلوا أرواحنا ! ولحظة بعد لحظة أهوى من قم الجنيات وأنحمل . أغرق في النداء الانساني المخيف . وأرى انك تجمد فلا تمعد يدك لتسكته .

ولحظة بعد لحظة تنفتح أغنية الجبل الزرقاء ، وتزاح ضباباته وغماماته ورموزه فينتح سره عن حقيقة واحدة . عن سفينة ضائعة في مكان ما من هذا البحر الواسع . سفينة ينتظرها القاع . كم يحزنني أن أحس بالعجز . عجباً ترسل صرخاتها في المدى الغامض : عجباً تستغيث . لن تسمعها سوى سفن مشابة تنتظرها أعماق مشابة ويشدها اليها مصير واحد . ولحظة بعد لحظة يمتصني نداء الاستغاثة المرعبة وامتنعه . وأحس بأنني أنا من بعض تلك السفينة الضالة . مسمار صدى في أحد أركانها . في

مكان ما من هذه الأمواج المتلاطمة ، في مكان ما سوف استسلم لنداء
 القاع وسوف تبذلني الهوة دون أن يحس لإنسان بحقيقة معنى زوالي .
 تمتد يدك لتسكت شؤم النداء المؤلم . قبضتي تتلصص وراء قبضتك ثم
 تطبق عليها وتظل ممسكة بها . لا تهرب . هذه هي الحقيقة الوحيدة .
 - انقلدوا أرواحنا - تنتحب باخرة ما ضالة في بحر ما - انقلدوا
 أرواحنا - غداً يقولون هربا فتخطأ مع سيارتها . لم تعد لسيارتي عجالات
 أسيطر عليها . أحسها تعوم منحررة من يدي والمقود ، تعوم في بحر
 مظلم أمواج متلاطم .
 أحس بالحدر . بصوت واحد متقطع عذب يصفر به صدري المنخور
 ويمتزج مع نجيب الباخرة ، وفجأة أراها - الهوة أمامنا . تتوهج الأضواء
 دفعة واحدة وتندفق إليها مع المطر والرعب . أرى القاع الى حيث تندفع
 السيارة . صراخ . انسجام عجيب بين الصراخ والصفيح الملحاح . يدي
 في يدك . القاع ... أين النور ؟ لا شيء .

لعنة اللحم الأسمر

في كل ليلة يا صديقي، حينما تنزل المدينة في أحضان الظلمة والصمت، وتنام عيون أهلي في الدار، انسل أنا من فراشي، وأنسل بصمت اللصوص الى غرفة المكتبة كما أنسل الآن. وفي كل ليلة يا صديقي أتمسك جدران الممشى في الظلمة فأحسها طويلة خفيفة كدروب الأساطير، مطلية بوجوه صغيرة نافرة. تقفز فجأة أمام وجهي ثقيلة الأجفان، حادة الأنياب، فأصطدم بها بلا شيء، وأتمتع بالشاطر حسن وعلي بابا والساحرة، ويأبطال الحكاية التي كانت تقصها عليّ أمي أيام طفولتي وأود لو أصرخ كما أود الآن، وأمد يدي أمامي لأتأكد ان ليس ثمة أحد، كما أمدّها الآن

اني أتماسك. لن أصرخ. أريد أن أصل الى المكتبة، وأريد أن أشعل عود البخور في الركن المغم، وأريد أن أقبع أمام الهاتف كاهنة علهاء ساذجة أعدت لك المعبود والبخور والضعية الحارة ولم يبق إلا أن ينبعث صوتك من سماعة الهاتف، وكأنا من كل مكان، قاسياً حنوناً غامضاً.

الى غرفة المكتبة أصل، يبطء أدفع الباب، أنيه الخافت يرعيني. عمي المشلول لا يمكن أن يوقظه صريه، ولا صورة أمي الميتة المصلوبة على الحائط، لماذا أنا خائفة؟ نشوتي الكبرى كل ليلة في أن أتسامل: لماذا أنا خائفة؟ كاذبة! تومض الكلمة كبيرة حقيقية: كاذبة! لست

خاتمة . لماذا أحب أن ادعي بنفسي ذلك وأصر عليه ؟ لماذا استدعي
رعشات الصبا الأولى أقبلها لكي أعيشها .. لماذا يا نفسي لم يبق لي إلا
أن أهدح نفسي ؟ شبعاً عجباً أنض كل ليلة من فراشي لأتبع مقابر
الليل بحثاً عن طفولتي ، عن مثلي ، عن أوهامي .. كاهنة مرعبة ،
استميت لأبعث أصنامي ، ادعيتها ، أتيناها من جديد وأنا أعرف لا
جدواها ..

لماذا كل ليلة أحدثك بالهاتف ، أحبك الى رجل مقطر في صوت ،
ولا أريد منك إلا الصوت ، أنا التي أستطيع ببساطة أن أذهب اليك ،
ان أقضي ساعات بطولها لديك ، فأنا امرأة عاملة ومسؤولة . لماذا أعود
بعد كفاح مرير لأنصرف كابنة الخامسة عشرة ؟ لماذا استدعي ظلال
المراهقة : الليل والبخور وعبير الياسمين لألتصاك في أفيائها ؟ أية خيبة في
اللحم والدلم ردتني الى أجواء الأثير .. الى حديث ، لا أتجرع الرجل إلا
بعد أن تحمله شحنتات الليل والبخور الى رجل مقطر في صوت ، الى حلم
ليلة صيف .

لا أحد في المكتبة سوى خفق أنفاس الياسمين اللاهثة عبر النافذة ، في
الركن أثبتت عود البخور ، وكما في كل ليلة تنجذب نظراتي الى صورتها
الحبيبة البيضاء على الجدار وأرى ملامحها تمتد وتبهت تمتزج ذراتها المشوشة
بالخائط فأحسها من بعض الخائط ، من بعض الحجر والاسمنت . اني
أكرهك يا أمي ، يا بعضاً من الطلاء والحجر . لماذا انتحرت ؟ لماذا
تأمرت مع عشيقك الموت وتركتني ومضيت ؟

أنا ملي بلدها عود الثقاب الذي نسيت . أتركه على الأرض ، عاد
كل شيء يترغ في أحضان الظلام ، ثعابين الدخان المعطر تتصاعد ،
تتلوى ، تتلوى راقصة شغافة ، تتأوه بصمت . أحس في تناقلها نداء
مكتفماً لدينا عجيبة قصية ، هي ملكتي ، تنبسط كل ليلة حيناً ينطق

المكان والزمان وعود القباب ، تبدأ حدودها عند أول شعاع ترسله أضواء الشارع الباهتة في المكتبة، وتمتد على طول شريط الأضواء الباهتة المحدودة في شوارع طويلة فارغة ، وتتلوى مع الشريط الذي ينطفئ في الصحارى والبحار ، ليلوح من جديد شاحباً متعباً في مدن أخرى سحيقة ، وأنا أمتلك هذه الدنيا التي أحيلها جديدة مغرية بعد أن ينحسر الناس في شوارعها الى عليهم ، وبعد أن تتوقف العجلات والحافلات وتهدأ يد شرطي السير في جيوبه ، فيصمت عالم الدم واللحم ، عالم الخيبة ، عالم الوجوه العاجية الكامدة التي قد تستأجر البارمان ، كي يخض لها الدواء . وتبدأ حدود مدينتي ، مدينتي الكبيرة ، كل مدينة ، مدينة الصمت ، وعيون الشريط الكهربائي المنورة الشاحبة ، المراقبة أبداً ، مدينة الأثير وأنا سيدتها ، وأنت بصمتك العجيب تبعني ، تجدد خلقي وتؤكد لي أن الأثير حقيقة ، وفي موجات صوتك الحارة كالبهار الأسمر ألقب . تعلمني من جديد كيف أهجر المقايضة لأحلم وأهذي وأكون أنا . أحبك يا رجلاً مقطراً في صوت لم تدنس به بعد لعنة الدم واللحم . بعد دقائق أسمع دقات الساعة الاثنتي عشرة ، وحيناً تغيب آخر دقة ... وبينما يدي ترتعد متوترة على سماعة الهاتف سيسطع في قلبي هديله ثم يتدفق صوتك ، يغمرنني ، يتوجني ملكة من أثير تضم إليها رجلاً من دنخان .

عود البخور العجيب يزفر أنفاسه . أحسنني اتحاد بها . أتحلل وأتمدد معها من جديد ، كثيفة غامضة تتوق الى نشوة الثلاثي في حنايا مدينتنا السحرية .

الساعة بدأت تدق . يلذ لي جوعي اليك ، أحب أحاديثك ، أحس فيها رقة غامضة كالنحيب المكثوم ، كثوتر سر خفي تكاد الحروف تميز عنه .

دقة الساعة الأخيرة ماتت منذ حين . الهاتف لم يرن، سندريلا هربت

من أمبرها ، والمدينة سقطت في حضن الليل الصامت ، وأنت لم تهتف .
 للمرة الأولى تتأخر . ماذا حدث ؟ لعل ساعتك تخلفت بضع دقائق ،
 سوف أنتظر بضع ثوان لا أكثر ثم تتلقف المدمنة جرعته المخدرة .
 الدقائق تمر بي شامنة ساخرة . الهاتف ميت . العالم الذي ابتدعته بك
 ومن أجلك يهتز . الساعة عادت تدق . دقة واحدة . أستسلم للمقعد .
 أرقب بذعر . يصيص البخور يكاد ينطفئ ، وغيمة الأثير بدأت تلدوب .
 المرئيات بدأت تتضح وأنا أكاد أعود أنا . وخوف حقيقي يغمري .
 إحساسي بالمدينة بدأ يعاودني ، أحس بأنني أسقط في شوارع طويلة مزدحمة ،
 تشرق عليها الشمس محرقة ثم تغيب بسرعة شاططة للأبصار ، لتعود وتشرق
 وتغيب ، والشوارع مزدحمة بأحاديث سريعة غير مفهومة وبشهوات متراكمة
 في عيون رجال فارقوها برهة وسوف يعودون ، وهي لهم وحدهم . في
 كل حجر من أحجار الرصيف آثار أقدام ، وعلى كل جدار بصماتهم .
 على كل شيء بصماتهم . عليّ أنا . أين صوتك يخدرني ؟ عليّ أنا . اني
 أسقط في القبو .

لما اقترب مني ذلك الأبله ، قلت له : اني أبحث عن رجل عينا
 نجمتان . دعني . قال : تعالي .. أنا أبدأ نجوم المدينة . وكان له متجر
 كبير ورائع ، في زاويته قالب حلو لامرأة ، قال : انصهري فانصهرت ،
 قال انسكبي فانسكبت . قال كوني فكنت ، واذا بي دمية من زجاج
 شفاف ، وانطلقت في المتجر وكان مملوفاً بالدمى الحلوة مثلي ، لكنهن
 كن سعيدات في المتجر يقضين النهار في طلاء وجوههن وإلصاق الشعر
 المستعار برؤوسهن ، ووجدت انه كان قد اقتلع عيونهن واستبدل بها ماسات
 وجواهر .

وأخذت أنتحب ، ولما وجد انني أبكي ، تذكر انه كان قد نسي
 شيئاً فعاد ليقطع عيني كي لا أرى اني دمية وانه مزيج غوغائي من لحم
 وعرق ودم ، قال لي : اقتربي . أحب لحملك الأسمر . صرخت :

دعني .. هناك أشياء كثيرة أخرى هي أنا . قال متعجباً : كم هو وزنك لأعرف من أنت ؟ وهربت من المتجر ، هربت أحل لعنة اللحم الأسمر . ولما التفتت بالرجل الآخر وقال لي : أحبك ، أحسنتي أميرة الندى ، ولما غمرت في خضرة عينيه ظلال حمر أعرفها ، صرخت .. سوف أكرهك حينما تلمسني ، وسوف أتلفذ طويلاً بعذابي لأنني كرهتك . وتعذبت كثيراً ، وتلذذت كثيراً ، وكرهت كثيراً . عبثاً مزقت الوجوه بأظافري بحثاً عن رجل عيناه نجمتان تمطران حناناً أخضر ، لكن الرجال الذين ضيعوا أنفسهم لا يشعرون . أين أنت يا عموداً من دخان لم أكرهه بعد ؟ لماذا لا نتحدثني ؟

الساعة تدق دقتين ، عود البخور انطفأ ، اني أتحلل بعدما كنت قد اتحدت به ، يعاودني إحساسي بثقل النوعي ، يدي عادت يدي، وجسدي عاد جسدي ، وصدري عاد يعلو ويهبط متعباً ، موحياً بمباهج مرعبة ، وأنت الذي رفضت أن أراك البارحة وكل بارحة ، أتمنى لو أنك الآن أمامي ، لأن البخور عاد رماداً دقيقاً تافهاً ، والياسمين انحسر ، والليل عاد ليلاً بشرياً مشحوناً بأصداء غناء جماعي في ليال تعبق برائحة الشواء الحار والضحك والشراب ، وأنا أضج برغبات كاهنة شهوانية في معبد من جليد . لماذا أحقد عليك وأنا من بعض لعنة اللحم والدم؟ لماذا أحقد على الظلال الحمر في عيون الآخرين وأنا من بعض حرارة الظل ووهجه وعنفوانه ؟ أنا لا أدري من أنا ، اني أتمزق . اني عذاب الماء تعشق النار ، يضمهما جسد واحد . لماذا لم تتحدثني بصوتك الليلة ؟

لا مفر من أن أشعل النور ، تسطح الأشياء ، المكتبة ، صورة أُمي ، أنا وأشيائي الممزقة ، حاجتي اليك ، لم أعد أقوى على الانتظار . انهار . أعبد القوة في انهباري . أتحدى نفسي . سوف أهتف لك ، لا ريب في أن رفضي الدائم جعلك تسأم وتمضي متمرداً على قدر الأثير، سوف أهتف لك، قد تكون أنت رجلي الذي يستطيع أن يخلق التعايش بين النار والماء ،

لماذا أغلقت رغبتك بك بالأمل ؟ فلأعترف ، لقد أدمنتك ولا خيار لي ،
 وإذا فشلت ، فلن أكون غيبة أكثر مما كنت .
 سوف أهتم لك وأضرب لك موعداً ، سوف أذهب الآن إليك ،
 أرفع سماعة الهاتف وأضعها على أذني ، لا أسمع أي صوت ، أضغط
 بأصبعي على زر عيشاً . لا صوت ، لا صدى ، يجرون حفرياتهم في
 شارعنا . وبعد أن يجمد كل ما في الغرفة فترة طويلة ، أنا والحائط ،
 والصورة ، والهواء ، تقهقه الساعة شامنة ثلاث دقائق .

انياب رجل وحيد

(♦) حوّل التلفزيون اللبناني هذه القصة إلى تمثيلية تلفزيونية من حلقتين إخراج الفنان انطوان غندور.

الموسيقى متمردة هوجاء كحفيف ثوب غجرية ترقص ، هنالك جذران
من الدخان الملون بأضواء باهتة ، وحكايا باهتة .. هنالك رؤوس لرجال
متعبين مغروسة في الفضاء الغائم للقبو ، وكؤوس ترتفع لحظة قبل أن
ينسكب النسيان منها في هوات بلا قرار .. هنالك قامات مزينة لنساء
ملونات تتأرجح بين المناضد والرؤوس كالدمى التي أتقن لقلها وحشوها .
وهنالك آهات مثيرة الأوجاع .. وكل ما في القبو يلهث كصدر كبير
ضاقت أنفاسه .. كصدره ، كصدر تلك المرأة التي تقف هناك تحت شلال
الضوء الأحمر وتغني ، وتهز جسدها أكثر مما تغني ، وتتلوى وهمهم وتئن
أكثر مما تغني ، كأنها تريد أن تغني « بالإيماء » ، أو كأنها تريد أن
تغني بشفتيها ، « وتعزف » بأردافها وكتفيها وظهرها .. وكان أي متفرج
لم يشمل بعد يستطيع أن يكشف أنها ماهرة في « العزف » أكثر منها
في الغناء !

الجميع يتابعون « عزفها » بإعجاب ثمل . فالأغنية ، عدا خشونة
صوت صاحبيتها ، قد حددت كلماتها .. أما « المعزوفة » فتترك الحرية
لكل منهم لينظم الكلمات كما يشتهي ..

وكان هو ، بوجهه المرم الوسيم ، وملاحه غامضة الحزن ، وشفتيه
المطبقتين بحزم كأنما على سر خطير ، وعينييه المتعبتين كعيني أسد تعيس ،
يرقبها من خلال أمواج الدخان ، يرقبها تهتز وتموج وتتأوه ، وشعرها

الطويل الأحمر المغسول بالدم الشهي يتأوت على كتفيها ، وكان هو أيضاً
يرصف كلمات أغنيته «لمزونها» .. « الليلة ، ستمددين في مبخرة لم
تعرف ثانياً جسدك دفء بخور كبخورها ، ووحشية جمر كجمرها ..
الليلة » ..

- بسام ..

يسكب ما تبقى من كأسه في جوفه المتخم بالحزن والرعب . يلتفت
ببلادة الى أحد أصدقائه الثلاثة الذين كانوا يقاسمونه منذته :

- ماذا يا دريد ؟

- هذه كأسك الخامسة .. يكفي أرجوك ..

- هذه كأسي الأربعون .. وهذه المرأة الأربعون .. وهذا في وهذا
جوفي .. وأنت هنا صديقي ولست طيبي ..

- ولكن ..

- ولكن لا تتدخل وتفسد لي حياتي ..

ينسل مندر الى الحديث بلباقة المحامين :

- دعه يشرب يا دكتور دريد .. لم نر الأستاذ بسام منذ أعوام

بعيدة ..

المغنية « العازفة » تكف عن الغناء وتنحني للتصفيق جيداً حتى تتيقن
من أن السكارى جميعاً قد لمحوا أكبر قدر ممكن من صدرها ثم تنسحب.
ينهض الرجل ذو العينين المتعبتين كعيني أسد تعيس ويتبعها دون أن يستأذن
أصدقائه . لا يبدو عليهم أي انزعاج أو أية دهشة . هذه حاله منذ
أسابيع كلما خرجت فريسة ملونة تستجدي صياداً كان لها أمهر صياد
وأغنى صياد .. وأكثرهم شراً ..

يهتف الدكتور دريد بطلاقة :

- ان صحته تسوء يوماً بعد يوم بطريقة غامضة لم أشهد لها مثيلاً !

يبدو أنه لن يعيش طويلاً ..

— من قال لك ذلك ؟

— أنا .. والآلة التي خططت قلبه ! سأحدثكم بسر .. ان خطط قلبه أغرب خطط لقلب بشري .. يخيل إليّ أنه مصاب بجنون غامض .
يضحك هشام كأنما لنكتة تذكرها ويقول متلعناً :

— لو قيل لي منذ أشهر أن الاستاذ بسام مصلوب في أعلى برج إيفل ، أو أنه يعمل مهرجاً في سيرك ، أو أنه يغازل الأنثى « تمثال الحرية » لصدقت أكثر مما لو قيل لي انه قد يسهر معنا .. وأين ؟ هنا .. ومع من ؟ مع نينا وشارلوت وثرثريا .. وأخيراً ذات الشعر الأحمر ، أنوار ! يستشق منلر لفافته بشفتيه ويهمس بيئنا تقترب رؤوس الرفاق من رأسه :

— الأغرب من ذلك .. لا .. من الأفضل أن أحفظ أسرار المهنة .
يهتفون بشراهة :

— ماذا ؟ قل .. كلنا أصدقاء .
يتجرع كأسه مرة واحدة :

— لقد زارني منذ اسبوع ، وكان حائراً في أمر ثروته التي ورثها عن أبيه ولم يبددها كما فعل أخوه .. وقد كتب وصيته !! وأنا كمحام ، أحفظ بها في خزانتي .

يهتف أصدقاء بسام « الأعزاء » مرة واحدة :
— وماذا فيها ؟

وبيئنا كان منلر يتحدث دريد وهشام عما في الوصية ، كان بسام يتأمل شعر أنوار الأحمر المفسول بالدم الشهي ويهمس :

— دعينا نخرج من هذا المكان المل ..
— لا أستطيع الخروج الآن ..

يود لو يبقى أمامها .. يغرس نظراته في العاج الأبيض .. يتحسس

الجوع في مسامها بلسانه .. لكنه يشعر بعشرات من الانفجارات المبهمة في رأسه ، وفي صدره ، كأنه استنشق دخان الصالة كلها ، كأنه امتص الضجيج بأجمعه .. يقول لها بصوت متعب :

— سأخرج وأنتظر في الدار .. لقد أعددت لك مفاجأة لم تحلمي بمثلها ..

— سألتق بك بعد ساعة واحدة ... لن أتاخر ..

يخرج من باب القبو فتعربد الأضواء الملونة على ملامحه الغامضة الحزن ، تضيء وتنطفئ وتتناوب بسرعة عجيبة ، الأحمر ، الأخضر ، الأزرق ، الأصفر .. كأنها شريط حياته يمر في ثوان على وجهه ... كأنها فصول عمره كله ... ليت شريطاً من الأضواء لا ينتهي يظل يسطح ، يخترع كل لحظة لوناً جديداً ، عمراً جديداً .. لماذا هذا الأصفر المرعب كآنياب رجل وحيد ... يكاد يصطلم بشاين يريدان الدخول الى الملهى ، ينحاز عن طريقهما معتذراً . كلماته المضمخة برائحة الخمرة تصعقهما . يجمدان في مكانهما حينما يتبينان وجه الرجل الحزين ، فلا تتحرك أقدامهما ، وبينما يتجاوزهما يلتفتان اليه متأملين قامته الفارعة تغيب في سيارته الفخمة .. ثم ينظر أحدهما الى الآخر كأنهما يريان أعجوبة .. كأن كلاهما يشك في أن صتاخيه قد رأى ما رأى ..

— هل رأيته ؟

— أجل ! ولكنني لا أستطيع أن أصدق ..

— لعله رجل آخر يشبهه ..

— الاشاعات تملأ الصحف منذ أسابيع .. اشاعات مشابهة لما رأينا ...

لا ريب في أنه قد جن ..

— هذا مؤسف .. انه من خيرة أساتذتنا .. هل قرأت كتابه الأخير ؟

نه يتحدث فيه عن ...

— كفى ، كفى .. أرجو ألاّ تبدأ بمحاضراتك الفلسفية وإلا كان مصيرك كمصير ... أستاذك !

الأستاذ بسام ينطلق في الشوارع التي خلت من المارة بلا هدف .. سيارته حائرة كباخرة أضاعت منارتها .. لن يذهب الى داره قبل أنوار بزمن طويل . صار يخافها . يخاف الصوت الرهيب الذي يعرف أنه ينتظره هناك ، لينطلق من رأسه ، من وسادته ، من مقبض الباب ، من مكان ما .. ذلك المجهول الذي يلاحقه .. يخاطبه .. يحدثه ذلك الحديث الرهيب . يقنعه .. يقنعه بلا دليل .. شيء ما في أعماقه يؤمن به ويستجيب له .. لن ينام أبداً لثلا يراه .. لثلا يطل عليه .. ترى هل رأى الناس جميعاً قبل أن يموتوا مثلما رأى ؟ وهل سمعوا مثلما سمع ؟ الرعب .. الرعب الحقيقي الذي لم يقرأ عنه في كتاب ، لم يعرفه فيلسوف .. ولكنه .. منطقته يرفض ماذا كله ! المنطق ؟ سنوات وسنوات عاشها كاهناً في هيكل المنطق .. ما أنفقه المنطق أمام الحقيقة التي لا تحتاج الى براهين .. انه ببساطة لا يجرؤ على أن يذهب ولن يعرض نفسه للبقاء في الظلام زمناً طويلاً .. يخاف أن ينام .. أنوار ستخفيه تحت جسدها .. نخدّره .. يتخذها درعاً له . لا . لن يذهب الآن . لن يغمض عينيه ، سيعيش ولن يضيق أيامه ..

مأساته بدأت منذ أسابيع .. منذ اقتحم ذلك الصوت الرهيب عزلة أستاذ الفلسفة الكبير .. مأساته أنه يصدقه، ذلك الصوت المجهول الغامض كأحشاء غيمة ترقص فيها ملايين الأرواح الراكضة المولدة ..

هذه الشوارع التي ترقد تحت عجلات سيارته ، بوداعة قطط خبيثة ، تسأهب لهواء طويل مضجع .. (هذا الليل الصامت المرعب والأليدي المزروعة في تربته السوداء التي تفوح منها رائحة بكاء نادب متقطع بشهيق خفيف .. الأليدي التي يحسها حوله خفية حادة الأظافر كخناجر خلعت

أنغامها وتأهبت لرقصة الحرب والموت .. ذات ليلة ، سوف تنقض على عنقه وتدميه .. ذات ليلة ، سوف يصرخ طويلاً ولن يسمعه أحد) . الصوت العجيب لا يقول له هذا كله ، لكنه يقول ما فيه الكفاية .. يومان .. يومان وتنتهي المهزلة .. لينها لا تنتهي أبداً .. أبداً .. الآن فقط يدرك أنها لم تكن مهزلة .. ولكنه كان يعيش المأساة بثياب مهرج ! حياته شوهمها ، بعثرها ، حتى الدموع التي كان يحسبها بلهاء كانت حقيقية ، والرغبات التي كان يحترقها ، يظنها ضعفاً مخجلاً ، كانت أصلاً لا عرضاً ...

يدور من مكان الى آخر في المدينة على غير هدى .. لماذا هو وحده يمضي ويفارقها؟ أنفاس الناس ما زالت حارة في الزوايا .. الأحاديث المملوءة بالحياة يكاد يسمعها أمام متاجر الباعة .. لماذا هو وحده يمضي ؟

ما زال يدور في الشوارع وحشاً جريحاً بلا مأوى .. يدور كأنه يود لو يتحسس كل رصيف ، كل عمود ، كل حجر ، كل وجه عابر .. كأنه يستجدي الالتصاق بها ، بشيء ما ، بأنوار ، بأي شيء ..

ما الفائدة ؟ يومان وتنتهي المأساة التي عاشها بثياب مهرج . السيارة تمر أمام دار يعرفها . دار أخيه . لا ريب في انه الآن يضم اليه امرأته السمينة وينام بينهما طفلها الصغير يتلصص عليهما من شق غطاءه . يخنقه بؤس مرير .. انه خيمة بلا أوتاد تعيث الريح بها . بلا أولاد يلعبون أمامها . بلا امرأة تنفخ فيها رائحة الطعام والدفء . بلا أفق . أخوه . زوجة أخيه . دريد . هشام . منذر . طلابه . كتيه . فلاسفته . خدعوه . خدعوه جميعاً . بدأت الخديعة الكبرى يوم أرضعته أمه ، يوم علمته الأخذ ورسمت في عينيه الطفلتين نشوة العطاء المرتسمة في وجهها .. أي عطاء ؟ وأي أخذ ؟ اليوم يكشف أن أحداً لم يمنحه شيئاً ما دام لا يستطيع أن يحمل معه شيئاً ! ما دام سيمضي وحيداً .. أية روابط تشده

الى الآخرين ؟ أي هليان ما دام لا يملك إلا أن يواجه قدره حارياً ..
وسوف يضرجون . قد يحزنون ، وقد يكون ، ولكنهم سيكونون بعينين
كالمفرجين الذين يشاهدون مسرحية ما .. يراقبونها ولا يمكنهم أبداً أن
يعيشوها حقاً .. « اني أعزق لأنني أواجه نفسي ، لأن أقتني قد سقطت
ولم أعد أملك إلا أن أحلق بعينين مذعورتين الى صدري .. الى الأنياب
المرعبة التي تنمو فيه ولعاب الحقد والشهوة يكسوها كسم فتاك .. اني
أكرههم .. ماذا أنا سوى هذي الأنياب الشرهة التي أود لو أغرسها في
كل دار ، في كل امرأة ، في كل عابر سبيل لن يموت غداً ، أغرسها
بوحشية لأتعلق بالأشياء ولا أمضي » ...

بحس انه يختنق . بمد يداً واهنة . يفتح نافذة السيارة . دفعه لليد
بكر ، دفعه الأيام الأولى للربيع بعد شتاء ممجي البارد . ذلك الدفع
الضخور الذي يشع حياة ونزقاً ويهيج في النفوس أشواقاً مبهمة الى أفراح
غامضة ، الى أراض بعيدة ، الى حب مجنون يسري في العروق لامرئياً
كالنسخ .. وهو محروم من هذا كله .. لم يشعر بما فقد إلا بعد فوات
الأوان .. ليته لم يفتح النافذة ..

أمام البناء الضخم يوقف سيارته . يهبط منها وينظر الى ساعته . يجب
أن يسرع في إعداد كل شيء ...

عامل المصعد نائم . كلهم نيام مطمأنينة ، يحلمون جميعاً بالنجوم
والشفاه اللطافة الممتلئة . أما هو فلماذا يلاحقه هذا الصوت ليحدثه عن
أشياء رهية .. رهية كصيرير أبواب مقابر أثرية لم تفتح منذ عصور ..
يدير المفتاح بسرعة في القفل ويدفع الباب . يضيء النور قبل أن
يدخل . يسير خطوات في ممشى ضيق . يقف أمام غرفة الخدم . يقرعه
بشيء من العصبية الخائفة . لحظات ثم يفتح الباب وتخرج خادم عجوز
ما زال النوم يشمخش في أهدابها المتكسرة ، تتبعها خادم أخرى في مقبل
العمر .

- هل أعددت كل شيء ؟
- نعم يا سيدي . وضعتها على الطاولة ذات المجلات .
- خذها الى .. الى غرفة المكتبة .
- الى غرفة المكتبة ؟
- سيطرت الدهشة على وجه الخادمة وطردت آثار النوم من عينيها .
- ماذا دهاه ؟ مكتبته أشبه بالمعبد ، أشبه بطفلة مقعدة مدللة لا يسمح لانسان بالدخول اليها ، لا يسمح لها بتنظيفها إلا اذا ارتدت ثوبها الأبيض وتحركت فيها بهدوء خاشع خوفاً من أن تصيب كتاباً من الكتب قطرة ماء واحدة ..
- الى غرفة المكتبة ؟
- الى غرفة المكتبة .. أجل (يصرخ) الى غرفة المكتبة !
- لقد لاحظت انه قد جن في الآونة الأخيرة ، لكنها لم تصدق ان الجنون سيبلغ به هذا الحد .
- أمرك يا سيدي ..
- ضعها في الركن ولا تنسي زجاجات الشراب . وانقلي أنت وفتحية الفراش الصغير من غرفة نوم الضيوف الى المكتبة أيضاً . ضعيه في الوسط ..
- السرير الصغير من غرفة نوم الضيوف الى المكتبة ؟
- السرير الصغير .. أجل (يصرخ) اسرعي ..
- يدخل الى غرفته . يتلع ثيابه .. يرتدي « بيجامة » خفيفة و « روب دي شامبر » فوقها . يفضل وجهه . يحمل معه حزمة من الأشياء ويتجه نحو المكتبة ..
- لم يكن للغرفة جدران . هنالك رفوف من الأرض حتى السقف مملوءة بالكتب ... هنالك جدران من الكتب .. جدران من الهديان .. هنالك أفلاطون وسقراط وأرسطو وبيقور وزينون وكانت وديكارت ونيشه

ودور كهائم و .. و .. وهنا كتبه .. جدران من المذيان (ماذا اخترعنا
 أياها الزملاء البلهاء ؟ الصداقة ؟ الحب ؟ المجتمع ؟ الاخاء ؟ اليوتوبيا ؟
 ماذا اخترعنا ؟ هذه الكلمات البلهاء كأسراب الجراد قد تغطي وجه البحر
 إذا انطلقت من رفوفي .. لكنها عجزت عن أن تنسج خيطاً واحداً يشدني
 حقاً الى إنسان ما ... الى شيء ما .. ما معنى كل ما كنت أفعله ما
 دمت الآن أحس بأن أسسه كلها قد نسفت .. نسفت حقاً .. اني أواجه
 نفسي من جديد ؟ من أنا حقاً ؟ الأناب ، الأناب الشرهة بالشهوة
 والانتقام ؟ فلاكن نفسي ما تبقى لي) .. العيون الصغيرة المرصوفة
 المستديرة تطل من الرفوف بفضول مدعور ..

يسمع نفسه يهذي . يخفيه صوته . يرى مئات العيون : ارسطو
 وأفلاطون وديكارت ونيشه و ... و ... (أياها الزملاء الأعزاء .. ان
 مومساً تمارس الحياة هي خير منا جميعاً .. سترقبون الليلة مشهداً لم تحلموا
 بمثله ، ستندبون أيامكم التي ضاعت كما أندبها الآن ، لم يبق لي سوى
 يومين فقط) !

السريـر في منتصف الغرفة كما أمر ...

يفتح رزمة الأشياء التي جلبها معه ويخرج منها قطعة قماش كبيرة
 من المخمل الأسود الناعم . يغطي بها السريـر حتى الأرض من جوانبه
 الأربعة .

النور الأبيض على مكتبه يضيء قوياً صافياً من أجل الحروف التي طالما
 سهر الليالي يفك طلاسمها وأسرارها . هذا النور الأبيض كان صديقه
 الوحيد ذا المكانة الكبيرة .. يتأمله بحقد .. يضع الى جانبه مصباحاً بشكل
 أقفى في فيها نور أحمر .. يشعل النور الأحمر والأبيض .. يتأمل ضيق
 المصباح الأبيض من زحف الأفق واللعة الحمراء بين أنيابها .. يخيل اليه
 ان صديقه القديم الأبيض ينظر اليه مؤثباً مستجدياً . يحقد شيطاني ينتزعه

عن المنضدة ويرمي به من النافذة .

تسقط الغرفة في شرك النور الأحمر الباهت. بسام يتأمل الأفنى بشوق..
أيها الآلهة ، لماذا تأخرت ؟ لماذا لم ترشدني الى التفاحة منذ زمن بعيد؟
قرع خفيف على بابي .. يسرع .. ينتحه .. أنوار في ثوبها الضيق
كجلدها او أضيق قليلاً عند الخصر ، أنوار جاءت تحمل اليه شلال الدم
والتفاح على كتفيها . تدخل .. تجمد وهي تتأمل الغرفة ، الكتب التي
تغطي الجدران ، الفراش الأسود من المخمل ، الشراب في الركن ،
والضوء الأحمر الوثني تنفثه الأفنى كالسم المنعش .. وقبل أن تلتفت اليه
ودهشة جزعة تغطي ما لم يغطه الكحل من عينيها ، تحس بوجهه قريباً ،
الى حد تعجز عن رؤيته بدقة .

(يا امرأة توقظ الحزن والحسرة والحزن ، يا عطر غابات مشحونة
بالتأوه والتعاس ، أريدك على المخمل الأسود عارية كالنجم ، لؤلؤة
وحشية البياض وحشية النعومة ، وحشية الجوع والعطش ... فجوعي
يا غريبة لن يشبعه إلا جوعك ، وعطشي لن يرتوي إلا من عطشك)...
وكانت يده الكبيرة تزحف وتغرق في شلال الدم والتفاح . أصابعه
القوية ترفع وجهها اليه .. يتأملها بعبادة حاقدة :
(أود لو أمتص من شفئك حياتك كلها لتكون لي .. أنا .. أنا) ..
تطلع الى عينيها متسائلة ضارعة ... وهنا ، هنا فقط يحدها ككاهن
صابيء ...

أنوار .. أريدك هنا على المخمل الأسود لؤلؤة وحشية البياض وحشية
النعومة وحشية الجوع والعطش ... ولكن .. حذار من أن أنا .. حذار
من أن تسمح لي بالنوم ثانية واحدة .. وإلا ..
تقرب منه وقد غيرت تعابير وجهها بسرعة كما تغير الأفنى جلدها -
كانت تهمس ، وكان أحلى ما في همها انه غفمة غير مفهومة .. أمسى

يبعد الكلمات التي لا تقال ، الكلمات الموح التي تتساقط في ضمير الليل
كدموع الأشجار المدارية ، غامضة ، ومن الأعماق ..

أنوار تتمدد على المخمل الأسود قارة ملذات من المخمل الأبيض ..
وهو يجلس الى جانبها ، يذفن وجهه في رقبتها بنحشوع حقيقي .. لا يريد
الجلد ، لا يريد اللحم ، لا يريد التفاح والدم ، يريد أن يشم رائحة
الحياة التي تفوح من مسامها حارة وديعة كأنفاس طفل .. يريد أن يشم
الفصول الأربعة في عنقها ، يريد أن يشم الخلود ، لماذا عليه أن يمضي ؟
مد يده ويجذب المنضدة المتحركة الى جانب الفراش . بملاً لنفسه
كأساً وتهض أنوار قليلاً لتتناول كأسها .. رفوف الكتب التي تغطي
الجدار وراءها تلتصع فجأة ، ويرى آلاف العيون الصغيرة المحشوة فيها
تأمله باستنكار وحقد ، يثور الدم في أوداجه ، أما زلّم أيها الفلاسفة
مصرين على أسطورة الخداع المقدسة ؟ والطين أيها الحمقى ، والطين الذي
يجوع ويشتهي ويحقد ، والطين الذي هو أنا ، لمن ؟ للديدان ؟ وجسد
هذه المرأة الخالدة لمن ؟ فلتحرق عيونكم المتكبرة الجائعة ! ستمشاهدون
بعد قليل حضارة الانسان المحمومة الحقيقية . سأكرمكم بأن تشهدوا هذا
اللقاء المقدس .. وستبكي عيونكم هذه لحظات العمر الذي ضاع .. وما
تبقي من عمري .. لن يضيع !

يسكب النار في جوفه مرة واحدة ثم يضع كأسه جانباً بالقرب من
كأسها .. يأخذها بين ذراعيه ، طرية هشة تحب أن تسحق ..

يضمها اليه امرأة توقظ الحزن والحسرة والحنين ... يفرق في دوامات
حارة عجيبة .. يشم عطر غابات مشحونة بالنعاس والتأوه .. الزمن حفة
من الرمل تنزلق برعونة من بين أصابعه كلما شدد قبضته عليها .. الرمل
ينزلق بسرعة لأنه سعيد .. ينزلق بسرعة .. بسرعة .. والعيون المكلمة
بين رفوف الكتب تستدير وتحممر .. ثم تدمع لأنه ليس لها جفون تسبها
كحي لا ترى ..

والضوء الأحمر يرتعش ، يلتهب ، يرتج ، يبدأ بالدوبان حينما
تسأل خيوط الفجر الأولى من النافذة .. وبسام يلهث متعباً ، مستريحاً ...
ويتأمل وجهها المدفون في شلالات الدم والتفاح .. عينها مغمضتان ..
شفتاها شهيتان منهكتان تعبها يثير النشاط في أعصابه .. أنفاسها تنتظم
كأنها تكاد تنام .. وإذا قامت وهجرته الى تلك الشواطئ المجهولة ،
كيف يبقى وحده والشمس لما تطلع ؟ وهذي العيون الحاقدة بين رفوف
الكتب ، سوف تقفز حوله كأقزام خيفة وتغمره ، وزجاج المصباح المكسور
سوف يتوهج في عينيه وينغرس فيها ، وذلك الصوت المرعب سوف
ينطلق من كل مكان ليقول له كما في كل ليلة : ستموت .. انه خائف ..
خائف .. أنفاسها انتظمت .. لقد نامت .. هربت منه وتركت جسدها ..
والعيون بدأت تقفز من الرفوف ... سوف يصرخ ... لا .. سيوقظها ..

يهرها بعنف ، بعنف انسان لم يقض الليل متعباً قارة اللذة .. تفتح
عينين بلهاوين وتسأله بضيق : ما بك يا بسام ؟

- أنوار .. أرجوك .. لا تنامي ...

- انني متعبة جداً ... اسمح لي بخمس دقائق ..

- لا .. لا أستطيع ..

تحقق الى وجهه بشيء من الرعب وكثير من الدهشة : ماذا بك ..

- آه .. عفواً .. لا شيء .

- دعني أذهب الآن ..

- لا .. لا تذهبي ... استريحي هنا ..

تتمدد من جديد بلهاء تثير حقه .. فلتبق ولو نامت .. إنه لن يكون
وحيداً على الأقل .. سيظل يتأملها حتى يطلع الفجر .. كم يخاف الليل ..
هذه الغاية من الشعر الأسود الكثيف التي تسدها السماء على خد المدينة
وفي طياتها أصوات خيفة ، هسات القدر ..

النور الأحمر يكاد يذوب نهائياً . والفجر الرمادي يصبغ كل شيء
 بريقه الفضي المتعب كبريق عينين مريضتين بالحب .. يحس بأنه متعب ..
 متعب .. أمواج شاطئ النوم تمتد إليه .. الى قدميه .. الى صدره ..
 الى رأسه .. يكاد يستسلم للنوم يجره الى كهوفه المخيفة حيث يسمع
 الصوت الرهيب كل ليلة ..

ينتفض مدعوراً .. لا .. لن ينام .. ينهض .. يستند الى النافذة
 المرتفعة ويتأمل المدينة التي بدأت ملاحظتها تتبدى في النور الشاحب .. قطعان
 البيوت والأشجار والشوارع اضاثة .. هذه المدينة التي تتململ في أحضان
 دماء الربيع تشيره .. يحسها شابة تتعري لصدر السماء وتمتد مستسلمة
 متطلعة الى أصابع الشمس التي ستجوس فيها بعد ساعات شراً شراً
 وحجراً حجراً .. اني أكثرهك أيتها المدينة ... ماذا منحتني ؟ لقباً ؟
 كرسياً في الجامعة ؟ سمعة طيبة ؟ مدارج أتحدث فيها ، وأذاً تنصت
 لسخافاتي وسخافات الأولين والآخرين ؟

(ماذا منحتني ؟ كنت أتحدث عن الحياة ولم أكن أحيا .. وكنت
 أفلسف الخلود وما كانت عطايك لتخلدني أكثر مما تخلد صغير قطار يعبر
 إحدى عطباتك .. منحتني الشهرة والزبد ، خلدتني ، وظللت هكذا بلا
 امرأة ، بلا ولد ، فيلسوف اللاهوت ، وظللت وحيداً ، دودة تتطفل
 على فئات الحياة ، وخادمتي الحفيرة كانت أكبر مني .. لقد صنعت
 ولداً ... شيئاً حياً) ..

الضياء بدأ يشع من المشهد المنبسط امامه ، مشهد مدينة تأهبت لليقظة..
 يحس بعنكبوت عملاقة تقبض على قلبه وتغلقه بسم محزن عجيب ... لكن
 المدينة لا تبالي .. تزداد استسلاماً للصباح الشاب الذي أطل من حواشيه..
 أيتها المدينة اللامبالية .. أنت مستعمرين هكذا مضيفة مزدهرة ، سيظل
 الحريف يعري أشجارك، وسيظل الشتاء يمسح صدر شوارعك بيده الثلجية،

وستظل الضحكات والأحاديث والقبل المختلطة تضيء في زواياك المعتمة ..
أما أنا فسأمضي ، والجمرة التي كنتها ، لم تترك وشماً على أي قلب ،
عاشت في الرماد ، وماتت في الرماد ، وبنت في الرماد قصورها المهلمة
كأعشاش النور المستباحة ..

حقد حقيقي أسود يتفجر من عينيه .. يحس بحاجة مرعبة الى أن
يحطم شيئاً .. يتمنى لو انه يتحول الى قدم شيطانية ضخمة يدوس بها
هذه المذينة كما لو كانت مجموعة من النمل ، يدوسها ، ويسحقها مع
التراب والصخور .. يلتفت ورائه ويراه ، أنوار ، قارة النسيان واللذة ،
تغفر على المخمل الأسود بوداعة واطمئنان .. يكرهها .. يكره هذه
الوداعة ، هذه الطمأنينة ، وهذا الاسترخاء .. يا امرأة رخوة كالهوام ..
يا لحماً بلا نبض ، بلا انفعال .. أنت سوف تخلدن بعد ما أمضي ..
أنت والغربان والضجيج .. وأنا سأمضي بعيداً أحل أعماقي المعبدة .. لماذا
يا ضحلة كالستنقعات لا تتألمين ؟ كيف لم يهرم وجهك في ثانية لما رأى
رعب وجهي ؟ أي عدل يمنحك الحياة ليغتصبها مني ؟ اني أكرهك ..
يتأملها وكأنه يود لو يغرس نظراته السمومة في لحمها حتى يسيل الدم
ويغسل قدميه .. تفتح عينها فجأة .

حينما ترى نظراته المرعبة التي يصوبها نحوها .. تنقلص عضلات خديها
في ذعر ، وتلتفت حولها كأنما للتأكد أين هي .. آثار الليلة الماضية مبعثرة
حول الفراش الأسود ، قبيح مشهد منضدة الطعام بعد الوليمة ، يثر
الاشمئزاز والحجل . يبدو أنها قد اعتادت المشهد ، وحتى النظرة في عيني
الرجل الواقف أمامها اعتادت القرف المنسكب منها .. أما ذلك الحقد ،
فهو ما تعجز عن فهمه .. تنهض وتلمأ أشياءها المبعثرة ، وتحاول أن
تصلح هيتها بسرعة .. يظل يتأملها بشراسة منوم مغناطيسي وهو يقترب ،
شيء في عينيه يخيفها . شيء أسود حاقد .. تهتف بلهفة : سأذهب ... لا

يجيب ، يسجن يدها في قبضة قوية كحديد السجن .. سأذهب .. لا
يجيب .. تصرخ بلذع : دعني أرجوك .. لقد آلتني ... يرتعد .. لماذا
لا تموتين معي أينها المرأة ، لماذا يا قارة اللذة والنسيان لا تشاركين انساناً
تعيساً مصيره .. كوني شيئاً حقيقياً مرة واحدة على الأقل .. تصرخ
رعباً وهي ترى الشياطين ترقص في مسامه : دعني ... دعني أذهب ..
ينتفض فجأة وكأنما أيقظه صوتها المسعور ... يهذي : اذهبي أينها البعوضة..
الآلهة يموتون .. وأنت والهوام والديدان ... تعيشين ...

يفرق في دوامة من التعب البائس بعد أن تمضي .. لا .. لن أنام ..
لن أستسلم للباس ، سأعيش ما تبقى من أيامي ثانية ثانية .. حمام دافئ
كفيل بأن يعيد لي حيويتي .. يقرع باب غرفة الخدم .. تنهض العجوز
وتفتح الباب نصف نائمة ..

- نعم يا سيدي ؟
- لماذا هذا النوم كله ؟ انهضي وجهزي الحمام لي ..
- أمرك ..

- تدخل الى المطبخ وتخرج وقد حملت بيدها سلة صغيرة .
- قلت لك جهزي الحمام .. ماذا معك ؟
- سلة .. سأملأها بالخطب ...
- بالخطب ؟ ولماذا الخطب ؟
- لأجهز الحمام ..

يتحدث ببطء مجنون بارع الذكاء : لا .. هذه المرة لم يعد دافع
الخطب يجدي ... هذه المرة سأغتسل بما لم يخطر لمخلوق .. اسمعي ..
جهزي لي الحمام بالكتب ... خذي الرف الأول الى اليمين من المكتبة
واحرقي كتبه في موقد الحمام كتاباً كتاباً .. وإذا لم يكف خذي الثاني
والثالث .

لا ريب في أن سيدها قد جن . لا دخل لها به ، سغفل ما يقول ...

— أمرك سيدي ...

يتجه الى الشرفة ضاحكاً .. وهكذا سأستحم اليوم بديكارت ، ونيتشه ، ولالو ، وغوستاف لوبون .. هذا رائع .. سيدركون جيداً أننا أنا وأسفح الماء الدافئ أنهم لا يصلحون إلا لهذا .. هذا الحمام العبقري يستحقه عبقري مثلي لن ينام، ولن يضيق ساعاته القليلة الباقية ... لم يتبق لي سوى يومين .. وليلة واحدة .

يخرج من حمامه بعد أكثر من ساعة نشيطاً مرحاً .. قبل أن يتجه الى غرفة نومه يقف أمام باب المكتبة ويتأمل الرفوف الثلاثة الفارغة، ويضحك بلقمو .. كان ألد حمام عرفته في حياتي ..

يقف قليلاً أمام المرأة ويتحسّن وجهه .. لا يستطيع أن يصدق أن اللبدان سوف تغزو هذا الوجه وتخرج من بين هاتين الشفتين ومن فتحتي المنخريين، لن يصدق أنها ستحشو هذا الشعر التنظيف والحواجب بيوضها وأقدارها .

لا .. هذا مستحيل ..

يسقط في مقعد مجاور ، ويضع رأسه بين كفيه وهو يتساءل : ماذا أفعل اليوم ؟ لماذا لا أذهب قليلاً الى الجامعة وأرى سلمى للمرة الأخيرة .. سوف أخدعها قليلاً وأتسل بذلك .. سأخدع الجميع ... اني أحقد عليهم جميعاً ... القطيع اسطورة ، اني لا أنتمي الى أية جماعة .. اني وحيد ، وسأمضي وحيداً .. ولكن ، لماذا سلمى ؟ ان رفاه أكثر جلالاً ونضجاً، وقد قالت لي البارحة انها لا تحب خطيبها وانني أكثر رجولة .. الخلد يستولي عليه .. رأسه يسقط بين يديه ويروح في اغفائة عميقة .. عميقة .. اغفائة أشبه باليقظة منها بالنوم ...

احساسه بالأشياء مرهف وحاد وهو يرى انه يسير في صحراء واسعة

لا نهاية لرمالها .. لا نهاية لصمتها ولكآبتها ... الرمال رمادية والسماء
رمادية وليس فيها نجمة أو شمس أو قر وليس في الرمال آثار أقدام ،
لا شيء سوى الرياح التي تعبث بكثبانها كأفاح لا مرئية : لا صوت سوى
همهمات الرياح التي تشبه ندباً أبدياً على وتيرة واحدة ...

وفجأة يرى أمامه ساقين من الحجر ، ساقين هائلتين وبالقرب منها
حطام تمثال رجل لم يبق منه إلا وجهه مهشم ويد ضخمة بالقرب من
الوجه ذي التقطية المربعة .. ويقرأ على قاعدة التمثال : « أنا اوزيماندياس ،
ملك الملوك ، أيها العظماء والصعاليك انظروا حولي ما بنيت ، انظروا إلى
آثاري التي ستخلدني أبداً ...

انه التمثال نفسه ، تمثال اوزيماندياس الذي سبق له وقرأ عنه في
قصيدة لشيلي .. والصحراء نفسها .

ويتلفت حوله إلى الصحراء الواسعة ليرى ما بنى اوزيماندياس ملك
الملوك ، ليرى آثاره التي تخلده .. لا شيء .. لا شيء سوى الرمال البله
الممتدة من الأزل إلى الأبد .. لا شيء سوى الصمت المجنون الذي يقطعه
صغير الرياح النادرة .. وفجأة يحس بذعر رهيب .. يريد أن يركض ،
لكن أقدامه مسمرة .. يريد أن يصرخ ، أن ييكسي ، لا أحد ، لا
إنسان .. السماء خرساء ورمادية يصرخ بها : ما الحقيقة ؟ قولي يا سماء ،
يا قناع القدر الرمادي ...

وفجأة ، يسمع صوتاً كثيفاً خشناً ، صوتاً رهيباً كصرير أبواب مقابر
أثرية صلبة لم تفتح منذ عصور .. يقول الصوت : ستموت ... الموت
هو الحقيقة الوحيدة ...

يعول متحجاً : متى .. متى ..

يقول الصوت : ستموت يوم ولد الربيع وفقاً لما هو في كتبك ..
ستمتوت يوم ولد الربيع .. ستموت قريباً ...

ويثقلت حوله .. من أين ينبعث الصوت ؟ من أين ؟ ويدرك بقناعة تامة ان الصوت ينبعث من رأسه .. منه هو .. ويتمنى لو يمزق نفسه ، لكنه يظل يسمع الصوت مقنعاً بلا دليل ، مؤكداً بلا برهان ، ويحس بكشافته ، ويحس انه يصدقه ويصدقه .. ويرى انه يجلس عند قاعدة التمثال ، ويرى قاعدته تتحول الى ملايين الرفوف التي تضم ملايين العلوم والكتب ، وملايين العيون لفلاسفة وأدباء وعلماء مضوا .. ويرى وشماً حاداً عميقاً كوشم من جمر كتبت به كلمات اوزماندياس : « انظروا حولي الى ما بنيت ، انظروا الى آثاري التي ستخلدني أبداً » . وحول التمثال لا شيء سوى الرياح تصفر ، لا شيء سوى الرمال المقتنة الهشة ... وينفجر باكباً بحرقه ، بحرقه أجيال من الرجال الذين ماتوا وتحولوا الى حرف أبله ، الى جمره مطفأة على قاعدة التمثال ... وينتحب ... والصوت يخرج من عظامه ومن أعماقه ، ويرتعد كأنه هو نفسه يحول الى ذبذبات ذلك الصوت الجبار الرهيب ...

يستيقظ . يجيل عينيه في الغرفة . كل شيء ما زال في مكانه ، كما كان لما خرج من الحمام واستسلم لمقعده . لقد هرب من ذلك الصوت الليل بطوله ، يبدو ان لا مفر .. حتى في ساعات الفجر الأولى ، حتى لو أشرقت الشمس من وسادته لظل يرى الحلم نفسه وظل الصوت الرهيب هو هو والصحراء هي هي ..

بشراة ، بتأمل خيوط الشمس الأولى التي تتحسس جانب غرفته ، بأسمى حقيقي يحس بالدفء يسري في عروقه ... (لقد نضجت الشمس ، ويعد غد يولد الربيع وأموت أنا حيناً يتشر الشبان والشابات في الدروب يقطفون الربيع عن الأرصفة المشمسة) ... يغمره حقد حقيقي ، يستحيل صدره الى بشر مهجورة ، تنمو فيها أنياب مرعبة يكسوها لعاب الحقد والشهوة كسم فتاك .. يكرههم ، يكرههم جميعاً أولئك السعداء الذين لن يموتوا ما داموا لا يعرفون متى يموتون ... (اني أكرههم ،

ماذا أنا سوى هذه الأنياب الشرهة التي سأغرسها فيهم جميعاً قبل أن أمضي) ..

يقفز من مقعده ملسوعاً . يرتدي ثيابه بسرعة . يخرج دون أن يتناول طعامه . من جديد تضع السيارة في الدروب التي ضاعت فيها منذ ساعات في الليل . لماذا يتسكع ؟ انه يعرف هذه المرة الى أين يذهب .. وهو يخاف أن يذهب .

(سأرى المكان الذي سيلقون بي فيه بعد ان أموت . المقبرة) .. يكره المقبرة .. عبثاً يحاول إقناع نفسه بأن الموت أمر عادي ، مجرد انتقال من دار فخمة الى دار حقيرة ، مجرد ترحال من مدينة فيها حي غني يقطنه الأغنياء وحي فقير يقطنه الفقراء الى مدينة لا أحياء فيها ، بيوتها متشابهة ولا شيء فيها سوى البيوت ، لا مدارس ولا معابد ولا ملاه ، حتى ولا شوارع لأن أهلها لا يتزاورون .

الى المقبرة يصل . يدخل بسرعة ويتأمل كل ما حوله .. عشرات القبور الخائفة وقد انبسطت تحت سماء الربيع الصافية ، عشرات الأكوام من التراب الأصفر ، عشرات الظهور المحنية كأنما خوفاً من سوط جبار ظالم .. يسير بين القبور ، يراها كما لم يراها من قبل ، ينظر اليها بطريقة جديدة ، تخيفه الحشائش التي تنبت على القبور ، تخيفه ، يخيل اليه أنها شبكة من الأعصاب والأوعية الدموية للرجل المدفون تحت القبر ، شبكة جديدة خضراء بسيطة .. يقف أمام أحد القبور يتأمله .. دون وعي منه تمتد يده الى الحشائش التي تنبت من أعلى القبر ، يقطف ورقة ويخيل اليه انه يسمع أنين المدفون في الأسفل ... آه ... ترى ما لون الحشائش التي ستنتب غداً على قبره ؟ سوداء .. ستكون سوداء حتماً ، كحقدته ، كأنيابه ، كعبثه ..

يقرب منه رجل رث الثياب يحمل في يده رفشاً ، ويتجول بين

القبور بلا مبالاة عجيبة ، كأنه راعٍ عجيب لقطيع يفترسه الطاعون ..
انه الحفار ، فليعد منذ الآن قبره .. يقترب منه .. صباح الخير كلمة
سخيفة هنا .. هذه المدينة لا تعرف المجاملات .. يقول له بلا مقدمات:
أريد قبراً ..

— حاضر ، من رخام أم تراب ؟ ما طول الشاهدة ؟
يفيظه جواب الحفار العادي .. لماذا لم يسأله لمن القبر ؟ لماذا لم يبد
دهشته من أن يشتري هو ، الشاب الفتي ، قبراً ؟ لماذا لم يقل له ما زلت
صغيراً ولم يحن وقت شرائك قبراً ؟

— أريده من رخام .. وله شاهدة مرتفعة .
يتأمل الحفار بازدياد وهو يقول : ثلاثمائة ليرة .
يتذكر يوم اشترى بيته الذي يقطنه .. كيف سأل عن (الشوقاج)
وعن الكاراج وعن المصعد و ... و ... هذه المرة لن يقول شيئاً ...
لا يدري ما قد يحتاجه فيما بعد ، يوم يموت ..
يدفع جزءاً من المبلغ للحفار : أريده غداً مساء .. يجب أن يكون
جاهزاً بعد غد .

يهر الحفار برأسه موافقاً واللامبالاة ما زالت تغمر ملامحه . يتركه
الاستاذ بسام ويسير بين القبور راجعاً الى سيارته وضيق عجيب يطبق
على عنقه ... عيناه تتأملان التراب في حجرة ، التراب الميت ، التراب
الرخو .. غداً يكون من بعضه .

يخرج من المقبرة ويعدو نحو سيارته . ينطلق بها نحو الجامعة .. يمر
ببيت أخيه . سوف يصعد قليلاً . سيدعو أخاه وزوجته الى العشاء غداً ،
يجب أن يكونوا جميعاً حوله حينما يموت ..

يصعد السلم بسرعة . يقرع الباب . لحظات . تفتح الباب امرأة سمينة
جميلة الوجه ما زالت في ثياب النوم ..

تقول والنباس ما زال يتمطى في ملامحها : أهلاً وسهلاً تفصل ...
يدخل وراءها الى غرفة الضيوف .. يخلس نظره الى الباب المفتوح
بينما هي تقول : « لحظة واحدة ، سأوقظ أخاك .. لقد تأخرنا في سهرة
البارحة .. »

نظراته المختلطة الى الباب المفتوح تتحول الى وجهها ، الى رقبتها
التي تبدو له حارة مكتنزة ، الى الانحدار الشهوي لصدرها تحت الثوب ...
يقترّب منها والأنياب الشرهة في صدره تصطك وترتجف ولعاب الشهوة
الحاقدة يسيل منها .. يقبلها من عنقها .. من منبت شعرها الذي يرفعه
نحو قمة رأسها بيده القوية .. همس مرتبكة : « أرجوك ، لا داعي
لذلك الآن ، سأجيبك كالعادة بعد أن يذهب الى عمله ... لن أتأخر
عليك » .. ما يكاد يفلت شعرها من بين يديه ، ويزيح وجهه عن
عنقها حتى يرى أخاه واقفاً أمام الباب وفي عينيه نظرة لا تعبر عن أي
شيء .. تراه رآنا ؟ لا يدري .. وجهه كوجه حفار القبور ، لا تعبير
فيه ولا إحساس ..

— أهلاً وسهلاً بسلام ... كيف صحتك ؟

— خير من قبل ..

— لقد حدثني الدكتور دريد عنك وقال لي إن قلبك متعب جداً
غريب النبض ..

— لا أهمية لذلك ..

يهتف أخوه في ضيق يحاول كتمانها : « لكنك زرت الاستاذ منذ
منذ أيام » ..

يقاطعه بسلام غاضباً : « هل قال لك شيئاً ؟ »

— لا .. لا .. أبداً ... كل ما قاله لي هو أنك زرتني ، وكنت
متعباً .. لا .. لم يقل أي شيء آخر ...

- حسناً .. جئت أدعوك الى العشاء أنت وناثلة ... غداً في الثامنة
أرجو أن تكونا عندي .. هنالك مفاجأة كبيرة لكما ..
- آه .. شكراً .. شكراً لك ...

يتقدم نحو الباب ليخرج .. تهتف ناثلة بطريقة رسمية أمام زوجها :
« لحظة واحدة يا أستاذ بسام ، فنجان قهوة فقط » .
زوجها يتأملها وابتسامة (شيلركية) ترسم على شفثيه .. يهتف بسام
بشيء من الخشونة دون أن ينظر إليها : « لا .. شكراً .. يجب أن
أصل إلى الجامعة ... لديّ درس » .

بينما هو يخرج يكاد يتعرّ بابن أخيه الذي ركض من إحدى الغرف..
(هذا الطفل الرائع أحقد عليه أيضاً .. هذه البلهاء جاءت به .. وأخي
الحقير منحها إياه .. وأنا .. أنا وحدي عمزت عن الأخذ والعطاء) ..
يصفق الباب وراءه بشراسة .

حينما يدخل من باب الجامعة ويرى الطلاب في الحديقة كالشول السعيدة
المتلثة أملاً بالحياة والنمو ، يحس من جديد بالأنياب التي في صدره
تكاد تنغرس فيه وتصب فيه سمها .. يوقف سيارته ويهبط منها متجهاً نحو
الدرج ... تلتقي نظراته بنظرات إحدى طالباته ، سلمى . سلمى بشعرها
الكستنائي الشهي كقرص من شهد .. سلمى وعيناها العذبتان كبيركتين من
عسل .. هذه الفتاة العذبة الهادئة لا يدري لماذا يرتجف كلما رآها .. كلما
حدثه .. انه لا يحس بالارتياح اليها .. لا يحس بالارتياح الى صوتها
الساخر دائماً ، وحديثها القاسي ... لا يرتاح الى هدوئها وصمودها ..
ووجهها الذي يظل ساحراً غامضاً رغم الكلمات الجارحة التي كان يوجهها
لها دوماً .. رغم كلمات الحب التي تغمره بها هي .. لا يدري لماذا يحس
انها وحدها تخدعه بينما هو يخدع الناس جميعاً .. هي وحدها تعذبه كالمرت،
بينما هو يعذب الناس جميعاً ..

تهز رأسها وتحببه بينما هو يتجه نحو مكتبه ومنه الى غرفة الأستاذة ..
يرحب به زملاؤه بشيء من الفتور ، سوف يصطنعون البكاء جميعاً
حين يسمعون بوفاته وبالبلغ الذي تركه لكل منهم في وصيته .. لن يدركوا
انه يخدعهم .. يشتري دموعهم وتمثيلهم .. يدفع لهم لقاء مسرحياتهم
الحقيرة .. يريد أن يبدو جميعاً حقيرين يوم يموت .
يحين موعد الدرس . ينهض الأستاذة الى صفوفهم ... لا يشعر
برغبة في الدخول الى الصف .. لا يهمه ما قد يقولون .. هذا يومه
الأخير ..

وحيد في غرفة الأستاذة . الباب يقرع . سلمى تدخل . تواجهه
بنظراتها التي يخيل اليه انها غامضة مداهنة ... يتأمل ساقيها بإعجاب
حقيقي ... ما اجملها .. لماذا لا يرتاح اليها ؟

— ماذا تريدان ؟

— اني بشرق اليك ... لماذا تصير هكذا ؟

لا يدري لماذا يشعر انها تسخر منه ، يهتف بقسوة : هذا شأني ...

— أين سهوت البارحة ؟

— لا دخل لك بذلك ..

— لا دخل لي بذلك لو لم تقسم لي منذ أسابيع على الوفاء .. لو لم
تطالبني بأن أخلص لك أنا أيضاً ..

— وهل أنت مخلص ؟

— أجل . أنا لا أكذب ..

تفيظه هذه الصراحة في الحديث .. انها تفوت عليه لذة خداعه لها ..
انها ليست انثى كاللواتي عرفهن .. انها لا تشبه أنوار ، نائلة ، رفاه ،
انها انثى من نوع جديد ، لم يعد لديه وقت ليعرفها ، ليت القدر يمهله
ليبدأ معها تجربة طريفة من نوع جديد ..

لماذا لا يقول لها كما قال لمن جميعاً : « اسمعي يا سلمى .. ساموت
غداً مساء .. وقد أوصيت لك بمبلغ كبير » ..
تشهق ، يرتسم الحزن في ملامحها ، يا للمخادعة الصغيرة !
- لقد أوصيت لك بمبلغ كبير .
تصرخ به : انك حقير ... لم أكن أبيعك حبي .. أبداً لا أريد
منك ثمناً ..

هذه الممثلة ، تصر على ارتداء قناعها واستمرار المهزلة حتى النهاية ..
سيخرجها : إذن قولي ، ماذا كنت تريدني ؟
- كنت أتمنى أن تحبني حقاً .. ان أكون زوجتك وان أمنحك
طفلاً ..

- سلمى ، هل تحبيني حقاً ؟
- أجل ! أحبك ..
- تعالي إليّ غداً مساء في الساعة .. تعالي في الساعة .
- سأجيب ، وأرجو أن ينتهي هذا البؤس كله .
تركة وتمضي .. تخلف له رائحتها ، وعدوبة برك العسل في عينيها ..
انه يحبها ويكرهها بطريقة ما .. يعود الى داره منهكاً .. يأكل بشره
ولذة .. يأوي الى فراشه .. سينام ما دامت الشمس تتسكع في السماء ،
سينام ما دام النهار مسيطراً لأنه لم يحدث أن رأى الحلم أبداً أكثر من
مرة واحدة في اليوم الواحد .. قبل أن يغمض عينيه ، يرفع الساعة
ويتحسس الأرقام بأصابعه ويدير أحد الأرقام ..

- ألو .. من المتكلم ؟

- رفاه ؟

- أجل ! من ؟

- أنا بسام ..

- بسام ، أهلاً ، صوتك متغير .. هل أنت مريض ؟
لا ريب في أنها تسمع صوت اصطكاك الأنياب الجائعة في صدره ..
يجب أن يكون أكثر حذراً .. يقول لها في لهجة جهد أن تكون رقيقة :
أجل أنا مريض .. مريض بالشوق اليك يا حبيبي ..
تضحك بطريقة يقشع لها بدنه اشمئزاً وشهوة ، ثم همس كما
تفح الأفعى : أنا على استعداد لأن أشفيك ..
- متى ، متى يا حبيبي ؟
- بعد ثلاثة أيام يرحل خطيبي ، وسأقضي معك ليلة رحيله .. سوف
تنسيني إياه .. أليس كذلك يا حبيبي ؟
- طبعاً .. طبعاً .. ولكن بعد ثلاثة أيام ، مستحيل .. أريد أن
تحضري الليلة .. ألم أقل لك انني سأموت غداً مساء ؟
تضحك بطريقة تثير حقدته .. هذه التافهة ، كيف تضحك ؟ لكنه
على أية حال يفضل أن يقضي ما تبقى له من الوقت معها لأمع سلمى ..
إنها تريخه .. يجب أن يختطفها من خطيبها بينما هي تتعذب دون أن تقوى
على مقاومة سحره .
- رفاه ، حبيبي ، أريدك الليلة ، الليلة قبل أن تسقط الشمس وراء
أسوار الأفق ، الليلة تعالي ودعينا نشهد المغيب معاً من الشرفة ..
- ولكن ...
- أرجوك ، قبل المغيب ..
- حاضر ، لن أتأخر .. من أجلك ...
- شكراً يا حبيبي سأقول للخادمة بأن تتركك تدخلين الى غرفة
نومي حينما تحضرين ..
- سأوقظك بطريقة لم تعلم بها .. وداعاً ..
تغلق سماعة الهاتف .. آه يا امرأة ، يا قارة النسيان واللذة والحبث..
كم أعبدك !

قبل أن يغمض عينيه لينام يتصل بالدكتور دريد ويدعوه الى العشاء
ويرجوه أن يبلغ هشام ، و منذر ، ذلك .. يفتن عينيه لينام ،
ولكن ...

لماذا ينام ؟ غداً يرحل الى براري النوم الأبدى ، حيث الرياح غادرة
والصمت الرمادي يسود العالم .. غداً في ذلك القبر الصغير يسجن وراء
أسوار تلك المدينة العجيبة ، وقد تمر سلمي تتأبط ذراع رجل ما ويضحكان
وهو يسممها ولا يقوى على ان يقول شيئاً .

تهدهده أفكاره الحزينة كأنها انشودة بحارة استسلموا لضياهم في
البحر .. موجة النوم تختطفه عن شيطان اليقظة ، تغمره بالنسيان ، يرحل
معها الى حيث لا يدري ..

يفتح عينيه ، رفاه تقف أمام فراشه ، وفي عينيهما الخضراوين تألتي
عجيب كالبرق .. لا ، لم يكن صوتها الذي أيقظه ، كانت نظراتها ..
نظراتها التي اخترقت جسده الممدد وعينيه المغمضتين . رفاه فراشة عجيبة
الجمال ، وأضواء ساعة الغروب تصبغ وجهها ورقبتها بحمرة مشرقة ..
يمتلئ قلبه بجزع جائع .. ما أحلى العالم والمرأة في الغروب .. لماذا لم يكشف
هذا من قبل ؟

ينهض من فراشه بنشاط . يضمها اليه ويتحسسها .. هذه القامة الطويلة
بتناسقها العجيب ، لم يكن ليصدق من قبل ان المرأة تشبه تماثيلها الرائعة
الى هذا الحد .. تشده من يده الى الشرفة العالية ، الى حيث يقف ليتأمل
الغروب يفجر ينابيع الدم في الشوارع والسطوح والنوافذ ويصبغ المدينة
بها .. الشمس تختفي وقد خلفت وراءها بقعاً من الغيوم الدامية التي تبتهت
شيئاً فشيئاً .. والظلمة تحل شيئاً فشيئاً .. ورفاه ، يحسها تنزلت من بين
ذراعيه شيئاً فشيئاً .. كأن هاتفاً ما يناديه وهو لا يملك إلا أن يلي النداء ..
كان عليه أن يلتحق بالشمس الغاربة ، يستحيل الى نقطة ملتهبة في مركبها

الرائع ، ثم يهوي على تلة ما ذرة من رماد ... يشد رفاه اليه بقسوة ،
يريد أن يتمسك بالمباهج التي تحملها .

— رفاه .. أحبك ، أتمنى أن تظلي معي ..

يسمع صوته وهو يقول هذا .. لماذا يكذب ؟ يعرف انه لا يحبها ..
لكنه يحب أن يخدعها ، يحب أن تحبه ، أن تتخلي عن خطيئها الشاب
الرائع ، من أجله هو الكهل الميت ..

— وأنا أيضاً احبك .. لقد تخليت عن خطيئتي الشاب الذي كان يعبدني
من أجلك ..

تقرب منه بوجهها الملهب كطبق من جمر .. يقبلها ، يود لو يسرق
من شفيتها عمرها كله .

— هل ستزوجني ؟

— أجل .. أعدك بذلك ..

— متى ؟ قل لي متى ؟

— أعدك بأن أعلن خطبتنا بعد غد !

— بعد غد !! تعني يوم السبت .

— أجل ! أعدك بذلك ..

على الأريكة تتمدد وتجبل عينيها في الشرفة التي ستكون لها ذات يوم..
تبدو سعيدة . وهو أيضاً سعيد .. سعيد بخداعه لها .. غداً يموت ، وبعد
غد ستكتشف انها فقدته ، صارت أرملة روحية ، سوف تبكيه طويلاً
كأوفى زوجة . ولن تعود الى خطيئها أبداً ..

لقد ترك بصماته عليها ، آثار أنيابه الصفر ..

سعيد .. يضمها اليه .. هي أيضاً امرأة توقظ الحزن والحسرة والحزن..
يفرق معها في دوامات حارة عجيبة .. يشم عطر الغابات المشحونة بالنعاس
والتأوه ، ويحس الزمن حنفة من الرمل تنزلق برعونة من بين أصابعه ...

الرمل يتزلزل بسرعة .. يتزلزل بسرعة .. بسرعة ..
 ... يكاد الليل يتتصف . تكشف رفاة ذلك وهي تنظر الى ساعته
 ذات المقارب التي تضيء في الظلام
 - أرجوك ، دعني أذهب .. لقد تأخرت ..
 صوتها لاهث ومنعش .. لا يقول لها شيئاً .. يتركها تنهض كحلم
 هارب .. يتركها تللم أشياءها في الظلمة ... تقترب منه بوجهها قبل أن
 تمضي لتقبله .. يغمره الشئزاز حاقداً .. يمد يده ليضيء النور .
 - لا .. لا .. أرجوك لا تشعل الضوء .
 لا يجيب . بقسوة يضغط على المفتاح تحت الوسادة .. يتفجر الضياء
 الفاجر أسهماً قاسية تسمرها أمامه .. يتأمل شعرها المشعث في النور ..
 لم يعد مصنفناً جميلاً ، ولا يبدو طبيعياً ، فعبث يديه بعد يدي الحلاق
 جعل الشعر يبدو منقوشاً في بعض الجهات وهامداً سخيفاً في بعضها الآخر ..
 والوجه وقد ساحت عليه الأصباغ فتلطف الخدان بالكحل الأسود والأخضر
 وضاعت حدود الشفاه التي كانت متقنة الرسم .. وبدت له نظراتها زائفة
 كأنما أدركت بغريزتها الأنثوية وطأة حكمه عليها وتحامله ... كم يكره
 الأشياء المنتهية ، الموائد التي شبع منها ، ما أقبحها .. يمتنى لو تخنفي
 بسرعة وتحمل تشويهاً ، هو الذي شوهاها ، كان يعرف ما سيري .
 أعضاء النور .. لا جدوى من أي شيء .. لا مفر ..
 تهمس بصوت ذليل مرتاع : أما زلت عند عدك .. هل سنعلن
 خطبتنا يوم السبت ؟
 بكثير من السخرية السوداء يجيب : طبعاً .. طبعاً يا حبيبتي ..
 تعالي يوم السبت مساء ، وسوف نسهر معاً .. وسأزور أمك وأخبرها ..
 تمضي ..
 يخرج الى الشرفة ويعب من نسيم الليل كأنما ليظهر صدره من أنفاسها ..

حتى خداعه لما لم يعد يجدي .. لا مفر .. لا جدوى من أي شيء ..

باستسلام منكسر مربع يعود الى فراشه .. باستسلام مفجع يدفن وجهه
تحت الوسادة ويكي .. ويكي كما لم يعو ذئب جائع ، كما لم تنح ريح
بين أذرع طاحونة محطمة .. ويكي .. سوف يظل يكي حتى ينام ..
سوف يستسلم للحلم .. للشبح .. للموت .. لقد تعب .. حتى أنياه تعب ،
سئمت ، يكي ... ويكي .. لم تعد الجدران تسمع نحيبه .. من جديد
يروح في الاغفاءة العميقة التي يعرف ... التي هي أشبه باليقظة منها
بالحلم .. من جديد يرى انه يسير في تلك الصحراء الواسعة التي لا نهاية
لرمالها وكأبتها .. من جديد يرى الساقين الحجريتين المائلتين . الكتابة
البهائم الفخور على قاعدة التمثال .. من جديد يسمع الصوت الكثيب
الحشن ، الصوت الرهيب كصرير أبواب مقابر أثرية صدقة لم تفتح منذ
عصور .. يقول الصوت : غداً أول الربيع .. غداً تموت .. غداً تموت !

من جديد يحس الصوت مقنعاً بلا دليل ، مؤكداً بلا برهان ، ويسقط
تحت وطأة كثافته ، ويصدق .. يصدق .

يستيقظ والدموع ما زالت تغطي وجهه .. لقد دنت النهاية .. فليستسلم
للزوبعة ، للدوامة الرهيبة التي تشده الى أسفل .. الى أسفل ..

... لما فتح عينيه مرة ثانية وجد ان الليل قد انقضى والشمس تغمر
الغرفة .. يحس بأسف عميق عميق لأنه غفا.. لقد انقضت ليلته الأخيرة ،
لن يرى بعد الباردة الليل الجميل يصيب المدينة بالصمت الأسود المرهف
وبعد الأشياء كلها للحب والحب .. لن يرى النجوم أبداً .. ليت القبر
شفاف .. ليته لا يموت ...

ما الفائدة ؟ ماذا سوى أن يكره ما دام سيمضي ويخلف النجوم
والليل للآخرين ؟ ماذا سوى أن يحقد ؟ ماذا سوى أن يفرس أنياه ليمتلئ
بشيء ولا يمضي ...

ينادي الخادمة . يريد حماماً كحمام البارحة .. سيستحم ببقية فلاحته..
هذا هو الشيء الوحيد الذي يصلحون له .. ليته اكتشف ذلك من قبل!
... يخرج من الحمام بعد مدة وجيزة . لن يضيع الوقت ، الوقت
ثمين . يفاجأ بامرأة تروح وتجيء في البهو بعصبية . يذهب الى غرفته عن
طريق المشى دون أن تشعر به ويرتدي ثيابه ثم يخرج اليها ..

— نائلة .. ماذا بك يا نائلة ؟

— لا شيء .. صباح الخير ..

— لا .. يبدو عليك الضيق .. هل قال لك أخي شيئاً ؟

هل رأنا البارحة ؟

— لا أعتقد .. لم يقل لي شيئاً من هذا ..

— اذن ، ما الذي يضايقتك ؟ تكلمي ...

— سمعت زوجي يحدث الدكتور دريسد .. اني قلقة .. هل أنت

مريض حقاً ؟

— لا .. أبداً .. أنا بخير .

تنفجر باكية فجأة .. تقول وجسدها الضخم يهتز : لن أخفي عليك

شيئاً من عذابتي .. أحقاً انك ستموت الليلة ؟

— من قال لك ذلك ؟

— أخوك يعرف ذلك منذ أسبوع .. خبرنا مندر بأنك كتبت وصيتك

وقلت له ذلك ..

— الوجد .. لم يكتم السر .

— لا .. لم يكن وغداً .. كان يرغب من أخيك أن يهتم بأمرك ..

— وهل خبرك بما في وصيتي ؟

تتلعم : لا ... لم يفعل .. لم يقل شيئاً ..

تقترب منه بخنان مقتعل : يا حبيبي المسكين .. ساموت غماً اذا

انتحرت ..

- ومن قال لك اني سأنتحر ؟
 - ماذا ؟ لن تنتحر ؟ اذن كيف تموت ؟
 - ستعرفن فيما بعد ..
 - لقد تأخرت . سأذهب ، سأحدثك دائماً بما يدور وراءك أيها الحبيب الطيب .. ثقي انني وحدي المرأة الوفية لك .. أنا وحدي وفية لك .. تمضي . يستريح منها ، من الكابوس اللزج .. سوف يذهب ويتفقد قبره .. لا .. لن يفعل .. أمامه الأبد كله ليتفقد . سيعد العدة للوليمة . وسيلعلم أشياءه ويحضرها للورثة .. والليلة ، حينما يتجمعون حول المائدة ، لن يدروا . أنهم يتناولون لحمه طعماً ، يتقاسمونه ، هو سيوزع عليهم نفسه بيده ... سيمنحهم لحمه وثورته وأشياءه .. وفجأة سيداهمه الموت .. ترى ما الموت ؟ أهو امرأة جميلة شعرها شلال من التفاح والدم ، تفتح الباب بهدوء نسمة فلا يراها سواه ، ويخرج معها الى الشارع متباطئاً ذراعها حتى إذا ما ضمتها الظلمة جرفته صامتاً منوماً الى المقبرة وغرست أنيابها الحادة في صدره ؟ ما الموت ؟ أهو لحن ناعم يتسلل الى صدره ويمتزج مع أنفاسه في إيقاع موحد عذب ، ثم يمضي ومعه أنفاسه التي عادت الى اللحن الأساسي الذي شردت عنه حيناً ؟ أم هو .. آه ... كفاه تفكيراً هكذا .. بعد ساعات يكشف كل شيء ..
 حفنة الرمل تتزلزل من بين أصابعه بسرعة .. بسرعة ... انه لا يريد للزمن أن يمضي .. يخاف .. يخاف الغروب الأخير الذي سيراه .. لا يعتقد ان لربى الموت شمساً أو فجراً أو زمناً ... هنالك الصمت ، أبد الصمت ، خلود الصمت ، إيقاع الصمت الرمادي ..
 الساعة السابعة .. والباب يقرع ! نسي أن سلمى ستجيء .. يفتح الباب لها .. داره لم تعد تستقبل إلا النساء ، تدخل ، يتأمل وجهها النظيف الذي لم يشوهه خط ملون هجين ... تضايقه هذه الفتاة المتأسكة التي لا يستطيع أن ينقدها .. يرى انها ترنجف ..

— هل تشمرين بالبرد؟
لا أدري ماذا حدث .. بعد هذه الأيام المشمسة يبدو ان الشتاء قد
صمم على العودة ..
يمضي الى النافذة فتندفق نسائم باردة جداً .. انه الشتاء يلفظ أنفاسه ..
يا للحسرة ..

— سلمى ، أريد أن أقول لك شيئاً ..
بلهفة تهتف بركنا العسل في وجهها : ماذا .. قل .. أرجوك ..
سيعلمها .. هذه المخادعة ، سيعلمها ..
— سأموت الليلة ..
ماذا ؟

— سأموت الليلة !
تقبض ملامحها فجأة كطائر يعذب . تنأسك . تنهض بصمت وتنتجه
نحو الباب لتخرج .
— سلمى ..

— هذا يكفي .. لو كنت تحبني حقاً لما تحدثت عن الموت بهله
اللهجة ، ولأحببت الحياة من أجلي ..
.. تغمره حيرة ممزقة .. يحس انه بدأ يضيع .. نائلة بكث ما عرفت ..
رفاه سنجن وتيكبي .. هذه البلهاء المخادعة ، لماذا لا تقول له شيئاً ؟
لماذا لا تمنح أنيابه فريسة من نفسها ؟

الباب يقرع . جاء ضيوف وليمة الموت .. يحس انه متعب ، بصحوة
ينهض . ينهض لاستقبالهم . قلبه ينبض بسرعة .. بسرعة كقلب الفراشات
التي لا تمش أكثر من يوم واحد ..
ها هو أخوه يدخل جامد الملامح كحفار القبور ، ونائلة ، بعينيهما

الحزبتين المتطلعتين الى مشهد مفرج كأنها جاءت تشهد صلبه . يتبادلون عبارات المجاملة العادية . يحس انها يراقبانه بفضول ، يتأملان مشيته وحركانه يتوقعان أن يسقط فجأة على السجادة ميتاً . انه واثق من انه سيموت الليلة ، بعد ساعات ، ولكنه لا يعرف كيف ؟ وقلبه ينبض بعنف عجيب ، يترقب المجهول المخيف ، المجهول الكريه ..

الباب يقرع من جديد .. يدخل دريد ومنذر وهشام . اكملت حلقة ضيوف الميت . يثرثرون وهو يضيغ عنهم ، يحس بالليل إحساساً مكتشفاً لم يعرفه من قبل ، الليل والريح التي تعوي كأنها الطبيعة تعاني مخاضاً مؤلماً قبل أن تلد الربيع ، وبعد ساعات يولد الربيع ويموت هو ! انه متعب ، خائف ، قلق ، حاقد ، يحس بضربات قلبه تزداد سرعة كأنها دورات محرك طائرة فقد ربانها القدرة على السيطرة عليها ...

يلحظ انهم جميعاً يراقبونه ، نظراتهم الفضولية تطالبه بمشهد مفرج.. لقد تأهبوا لذلك ، كجلادين متعطشين للدماء ، يلاحقونه بأسئلتهم عن صحته وقوته .. فليعترف انه لا يدري كيف سيموت ولكنه متعب متعب..

— الطعام جاهز .. تفضلوا ..

ينهبون نحو غرفة الطعام الفاخرة. يلتفون حول المائدة يأكلون بشراهة. يحس بأسنانهم وكأنها تنغرس في لحمه هو ، يثرثرون ويضحكون : هل يمكن أن يكونوا لا مبالين الى هذا الحد ، أم انهم لم يعودوا يصدقونه ؟ الساعات تمضي والليل يكاد يتصف وخطر عجيب بدأ ينسل الى مفاصله وعضلاته .. ما زالوا يشربون ويضحكون ، وهو يحس بانفصال حاد تدريجي عنهم كأنه شجرة في قة جبل عار . يبدو لعينيه كالأشباح ، لم يعد المجهول خيفاً ، لم يعد كريهاً ، وداعة جقيقية غامضة تغمره والأنياب الجائعة في صدره بدأت تتساقط كأوراق الخريف وترك قلباً عارياً لسان الليل والريح يلعبه ويخن عليه .. يحس بحاجة الى شيء ما ،

الى وجود جديد، وجوههم تراقص أمامه ، نائلة بعينها الحزبتين وصوتها
البائس إذ قالت له « ثق انني وحدي المرأة الوفية لك »... وأخوه بوجهه
الجامد المترقب ، أخوه المسكين الذي خدعه طويلاً دون أن يدري ،
ورفاه ، وجه رفاه المسكينة مشعث الشعر ساعة أضاء النور فجأة إذ نهضت
من فراشه ، وتعمد أن يخرجها ويشوهها ، ورفاه تموء «لقد تخليت عن
خطيبي الشاب الذي كان يعبدني من أجلك » ..
ودريد الحريص على صحته ، المرتاع من أجل ضربات قلبه العجيبة ..
ومنذر .. وهشام ... وأنوار ... و وتختلط الوجوه ، تتراحم ،
تتلاحق ، يحس بندم عجيب يعتصر فؤاده ، يود لو يصرخ . لقد أسأت
اليهم جميعاً ، لماذا يا أنيابي ، يا أنياب الرجل الوحيد .. أريد أن
أموت الآن ، أريد ، تراني أستريح .. تتسلل من النافذة سحابة قوس
قزحية الألوان .. يستنشقها ، يمتصها ، يسمعها ، ينفجر شيء في صدره
ويحس أنهم يحملونه الى غرفته ويسمع من بعيد ، يسمع من بعيد نجيب
زوجة أخيه .. الطيبون ، سوف يجدون بعض العزاء حيناً يقرأون وصيتي،
حيناً يخبرهم منذر بأنني تركت لهم جميعاً ثروتي .. آه . أختنق .
الريح ، الريح تحملني معها الى بعيد ، أنا غيمة ، أنا نسمة ، أنا
ذرة رمل في الصحراء الشاسعة ، الصحراء الرمادية حيث لا شيء سوى
الريح الساخرة من الكلمات المحفورة في الصخر .. كلمات الانسان الفخور..
ومن بعيد يسمع زعيق نائلة :لقد مات .. مات ... إذأ فقد مات !..
شيء كثيف كالصمت العميق العميق الذي يطوي في جموده معرفة الوجود
كله يغلفه .. إذأ فقد مات ! يسمع بكاء أخيه ، بكاء رفاه، بكاء أنوار،
بكاء منذر ودريد . بكاء .. بكاء .. كم سبب لهم من آلام ...
إذا فقد مات ! تلفحه الريح ساخرة العويل .. إذا هكذا يكون
الموت .. رحلة الى صحراء الحقيقة ، الحقيقة الأولى هي الرمل والريح ...
ينفجر محرك الطائرة المسعور في صدره ويصمت كل شيء ..

يتقضي بعض الوقت ...

يفتح عينه . يرى انه في غرفته .. الأشياء ما زالت شاحبة والوجوه المنكبة على سريريه ليست واضحة بعد .. هنالك حديد بارد ملصق على صدره .. سماعة طبيب ... الوجه القريب منه هو وجه دريد . يستطيع أن يميزه . آه هذه نائلة بعينها المحمرتين . هذا أخوه ، منذر ..

انهم جميعاً حوله . ولكنه مات ، هنالك ذلك الصمت العميق الكثيف في أغواره يقول له انه مات .. ولكن هل يعي الميت وجود الآخرين ؟ الريح قد صمتت ، والفجر بدأ يطل من نافذة غرفته .. يسمع دريد يهتف : الحمد لله ، لقد انقضت التوبة وعاد قلبه يخفق بشكل طبيعي .

بسام يسمعه ، ولكن صوته يبدو غريباً بعيداً ، أشبه بزخارف ملونة مخيفة التمويه على جدار وحشي غريب مربع يراه بينما هو يسمع دريد يتكلم ! هنالك شريط من الكلمات المضيئة يتحرك بسرعة على جبين دريد، والكلمات المضيئة الصامتة التي تتحرك بسرعة كالأفاعي تقول : أيا الثور، لم أشهد في حياتي كلها مريضاً مثلك .. لماذا لم تمت وترخي ؟ لو افك تلدي كم أنا بحاجة الى تقودك ..

بسام يظل صامتاً جامداً يتساءل برعب .. تراني مت أم لا ؟ أهذا هو الموت أم انني نجوت حقاً ؟ الحمد لله على سلامتك يا حبيبي ، يا أخي ..

ويحس بسام بأنه لم يعد يبالي بما يسمع .. لقد انجبت عيناه بحركة عفوية إلى جبين أخيه حيث رأى أيضاً شريطاً من الكلمات المضيئة يتحرك بسرعة ، والكلمات المضيئة الصامتة تقول :

لعنة الله عليك ، لماذا لم تمت ، لقد تحملتك طويلاً ... لقد سكنت على علاقتك بزوجتي يا كلب بانتظار اللحظة التي نحصل فيها على هذه الدار الرائعة ...

بحسب سام انه يتطلع ريقه بصعوبة .. ويدرك انه أضحي قادراً على قراءة ما يحول في ذهن الآخرين .. انه لم يموت ولكنه اكتسب هذه الملكة العجيبة ...

نائلة تثن : سلامته .. سلامته ...

وينظر الى جبينها مستعظفاً لكنه يقرأ شيئاً من الكلمات المضبوطة المذهلة :
لماذا يا رب ابتليتني به وبأخيه .. لماذا لا يموتان وأستريح من سماتهما ؟
منذ الصباح وأنا خائفة من أن لا يموت ..
يد وحشية القسوة تعصر قلبه وتملأه بحزن حقيقي عميق ...

إذن فقد كان أخوه يعرف وكان يصمت ويتجاهل من أجل ماله ؟
اذن كانت نائلة تخدعه، تمنى موته ، وموت زوجها أيضاً ؟ اذن كان
دريد ينتدر بمرضه و ينتظر ساعة الخلاص منه ... وهو، العملاق البائس ،
كان يظن انه يخدعهم ، كان يتعذب لأنه يحقد عليهم ، كان يظن انه
يلوث أشياءهم ، يلعب بمقدراتهم ، واذا يخدعهم أعرق من خداعه ،
واذا بالأعبيه طفلة بريئة أمام غشهم ودنسهم .. واذا بأنبيائه التي كان
يظنها حادة قاطعة ، ناعمة ساذجة أمام شرهم .. كان يظن انه قد نجح ،
لكنه الآن يؤمن بأنه قد مات ، مات حقاً ما دام أضحي قادراً على أن
يعرف ما يدور بخلد الآخرين ، مات الميتة الأبدية التي لا راحة منها ،
كل منهم طعنة خنجر ، انها ميتة بروميثيوس الذي سرق النار المقدسة ،
نار المعرفة فعاقبته الآلهة بأن صلبته عارياً على جبل وجعلت النور تاكل
أهدأ من كبده الذي يتجلد كلما تمزق في أبدية عذاب عجيبة ..

وهو قد مات .. مات حقاً ما دام في كل كلمة كأس من السم ..
لقد صدق الصوت الغامض .. لقد مات ..

« الموت الحقيقي هو أن أعرف الآخرين .. يا ربي مما تبقى » ...
يبدم منذر ببلاهة : « يبدو انه قد تحسن ، من الغريب انه عرف

سلفاً انه سيصاب بمثل هذه النوبة .. « لكن بسام لا يبالي بسمع كلماته، انه يقرأ شريط الكلمات المصنّعة المتراكضة على جبينه : سَنَصَابُ جميعاً بنوبة مماثلة لأننا صرفنا ما في الجيب منتظرين ما في الوصية .. ليتني لم أخبرهم بما فيها لأنني لن أنجو من لومهم الى الأبد ..
لم يعد يستطيع أن يتحمل ... هذه الحفارات التي تجول في رؤوسهم، وهذا الازدواج الفظيع، هذا الانفصال الكامل بين ما يقولون وما يصنعون، أهذا ما علمتهم المدينة إياه ؟

يسمع انه يصرخ: أخرجوا جميعاً .. أخرجوا من وجهي، يا لحفارتكم ..
يخرجون ويظل وحيداً . ينادي الخادمة . تدخل مرتعدة .
— أريد كأساً من الماء ..
— أمرك سيدي ..

يقرأ على جبينها العجوز « مسكين سيدي بسام ، لو كانت له امرأة وولد لما تعذب هكذا وجن » ..
يشرب كأس الماء ويسقط في نوم طويل متعب ..
يستيقظ والشمس تكتس الغرفة بشعرها الأشقر . ينهض ليذهب الى ..
الى حيث لا يدري ... سوف يكتشف العالم من جديد ... لا أحد يدري أية قوة سحرية عجيبة يحمل .. لا أحد يدري أي سر رهيب يطوي بين جوانحه ، أي عذاب أبدي يلازمه وسيلازمه ما دام يدري ويعرف كل شيء .

يركب سيارته وينطلق بها . يقف في إحدى محطات البتزين ليملاء خزانها . حيناً يعيد له العامل ما تبقى من المال يقرأ على جبينه انه خدعه وان البتزين مغشوش. ليت لا يعرف ... « أية ميتة هذه التي أحياها » ..
الى أين سوف يذهب ؟ الى الجامعة، الى حيث زملاؤه المعلمون الراقون ..
لا ريب في أن أفكاوهم تنطبق على أفواهم ... يدخل الى جانب أحد زملائه ، يحده متلفظاً : صباح الخير أستاذ عباس ..

- صباح النور يا فيلسوفنا الكبير ... كيف صحتك ؟
على جبينه تتزلق الكلمات الحقيقية المضيئة « صباح الزفت يا أكبر
سخيف ومغرور .. ومع ذلك يدفعون لك ساعات إضافية أكثر من
جميعاً ..

بحس بأنه عاجز عن متابعة أي حوار معه .. يصرخ فيه فجأة :
أيها الحقير المتلون ، أهكذا تجيب ؟

ويلتفت بقية الاسئلة اليها بدهشة .. لقد سمعوا جميعاً جواب الاستاذ
عباس ولم يكن فيه ما يغضب بل على العكس كان مفعماً بالطف ..
أنهم لا يدرون ان هذا اللطف المفتعل بالذات هو ما أثار الاستاذ بسام ..
يتهايمون : لا يسمعون لكنه يقرأ على جبينهم :

ألم تقل لكم منذ أيام أن المسكين قد جن ؟
سوف يعتبرونه جميعاً مجنوناً ما دام صادقاً وخلصاً .. كان عليه أن
يشكر الاستاذ عباس وان يريق على خداه خداعاً ليكون فيلسوفاً وذكياً ..
فليحاول ، ان عليه أن يتظاهر بالجهل كي يقوى على التعايش معهم ...
يقول بانكسار مفعج : آسف يا أستاذ عباس ، لم أكن لأوجه الكلام
لك ، هنالك مشكلة فلسفية كنت أتم مناقشتها في ذهني ..
يجيب الاستاذ عباس في مداينة عجيبة : لا بأس ، لا بأس ، نحن
اخوان على أية حال ..

ويحاول بسام أن يدير وجهه عنه كي لا يرى الحقيقة لكنه لا يستطيع ،
هنالك قوة همجية تشد عينيه وحواسه الى الجبين ، الى حيث الكلمات
المضيئة : الحقيقة ... ويرى هناك الوجه الحقيقي لزميله ، يرى الكلمات
العفوية قبل أن تغيرها غابة المدينة ، يرى أن عباس يقول في نفسه :
لو لم تكن رئيس القسم لصفتك على خدك المحمر كالنور .. ولكن ،
علينا أن نتحمل جنونك أطول فترة ممكنة ..

ورغم انه وطد العزم على أن لا يجيب ، يجد نفسه يصرخ في وجهه
 بحدة : أنت المجنون ، أنتم المجانين جميعاً ما دمتم ترتدون وجوهكم على
 وجهها المعاكس ! هل تريدون أن تروا كيف تبدو لعيني ؟ انظروا !
 ينهض الاستاذ بسام ويخلع معطفه ثم يرتديه ووجهه الى الداخل وبطانته
 الى الخارج ! ويلهه الاساتذة ثم ينفجرون ضاحكين ويقرأ على جبينهم:
 مجنون .. يجب طرده ... لكنه لا يبالي ، يصرخ: انكم ترتدون وجوهكم
 وشخصياتكم كما أرتدي الآن معطفي ! ليستم تفهمون كم أنتم مضحكون
 بالنسبة لي ! السم في أعماقكم ، وكلمات المداينة تلتطخ شفاكم كالأصباغ
 على وجهه مومس ...

يخرج من غرفة الأساتذة وهو يحمل معه حقيته التي اعتاد أن يحملها
 دون أن يفتحها منذ أسابيع .. يتبعه الأذن ويحاول أن يحملها عنه وهو
 يقول : اتركها عنك يا سيدي سوف أحلها أنا حتى السيارة .. ويكاد
 يعطيه إياها ويشكره حيناً يقرأ على جبينه وجهه الحقيقي ، يقرأ : « لم
 تدفع لي أجرة الشاي والقهوة منذ ثلاثة أشهر ، أخشى ان تكون قد
 جنت حقاً وأبقى أنا بلا نقود » .. وبسرعة ، بألم حقيقي، يدفع له ثمن
 تملقه ويتركه يحمل الحقيبة له ... ولكن ، بينما السيارة تبتعد عن الجامعة،
 يرمي بالحقيبة من النافذة بقرف !

الى أين ؟ الى أين يذهب ؟ أين يستطيع أن يجد مخلوقاً واحداً يقول
 ما يفكر به ؟ أين يجد مخلوقاً لم يسقط في غابة الأتعة ويظل فخوراً
 بأشائه مباحياً بأحاسيسه الحقيقية مهما كانت مستهجنة ! أين ؟

يوقف سيارته في أحد الشوارع ويسير وكأنه يرى المدينة للمرة الأولى،
 كأنه يرى البشر للمرة الأولى .. حيوانات عجيبة تسعى ، كل فرد فيها
 مزدوج .. المخازن الكبيرة قد فتحت أبوابها والأرصفة مزدحمة .. الى
 جانبه رجل تتأبط ذراعه امرأة شابة يبدو أنها زوجته . عيناه تتأملان

عابرة وعلى جبينه تضيء كلمات الأعماق : ليتني لم أكن متزوجاً ... على الناصية يقف رجلان يتصافحان في مودة ... انه لا يسمع ما يقولان لكنه يقرأ على جبين أحدهما : كلما غيرت طريقي التقيت بك ... لو كنت تدري انني زورت الأوراق باسمك .. يلحق به متسول مشوه الساق في مشيته عرج . ترعق السيارات ، المتسول يلاحقه .. ينفحه بعض النقود والمتسول يقول : الله يطبل في عمرك .. وعلى جبينه يقرأ : حيناً أنا أنق أمشي خجراً منك ..

لا يدري كم من الساعات انقضت وهو ما زال يتسكع ... يكشف الوجه الحقيقي للناس بعد ما غسلت لعنته وجوهم وجعلته براهم على حقيقتهم .. ويشعر بالخوف ... بخوف حقيقي وحشي ينبع في أعماقه .. انه طفل ، طفل من كوكب آخر فقد القدرة نهائياً على التعايش مع مدينة غريبة تضحك شفاه أهلها بينما أعماقهم تدمى ، وتتسل ملأهم بالدموع ، بينما تفور مستنقعات المداينة فيها ...

هؤلاء العابرون ، لم ير انساناً واحداً يقول ما هو في أعماقه ... لم ير انساناً واحداً يرسم على جبينه ما تنطق به شفتاه ... الى أين يذهب وهو الانسان الوحيد الميت الذي يسعى ؟ لقد صدق الصوت العجيب ! وهو اليوم قد اكتشف الموت، معنى الموت هو أن نعرف الآخرين ونظل نحيا معهم ! الموت هو وجوه من حولنا حيناً تسقط الأقنعة عنها .. فليذهب، فليذهب الى المقبرة، الى حيث لا تناقض بين الأقوال والأفكار... وليتحدث الى الرجل الذي يبيع القبور ، لا ريب في انه شيء آخر ... حيناً يصل الى المقبرة يحس بطمأنينة عجيبة تغمره ، أولئك الأحياء حقاً ، الذين يمارسون في قبورهم حياتهم الحقيقية، ويتخلون عن عشرات الشخصيات التي كان عليهم أن يتبنوها في تعايشهم مع الآخرين، أما هنا، فكل منهم يمارس فرديته بالطريقة التي تروق له .. وفي الليل، تغتبط السماء لأغانيهم المتناثرة التي تنضم في لحن واحد ميزته الوحيدة انه صادق ..

هنا يظل الملعّد يشمّ الى الأبد ، دون أن يضطر لنشر الكتب عن الإيمان .
وهنا يظل المحب ينشد أغانيه الى الأبد ، دون أن يخشى الحياة أو القدر
أو الاهانة ... فليكن حفار القبور صديقه .. يقترب منه ويقول له :
« صباح الخير » .. هذه المرة يحس أن مكان « صباح الخير » الحقيقي
هو في هذا المكان .

— أهلاً .. صباح الخير .

ويقرأ على جبينه : ألم تمت بعد؟ ظننت أن الورثة سيدفعون ما تبقى !
يتأسك ويحاول أن يتم حديثه ...

— هل أنهيت بناء القبر ؟

هذه المرة يتحدث عن القبر بلهفة ، لم يعد شيئاً مربعاً وهو الذي
صار يرى في كل جبين هوة تنشق وقبراً ينتظر ، وهو الذي صار يحس
كل كلمة من كلمات الآخرين صخرة وصخوراً تتدفق عليه لتمطره .

— نعم ، لقد انتهى القبر ..

ويقرأ على جبينه كلمات الأعماق ، وأنت أكبر غيب في رعيّتي ويدو
انك لم تدفن أحداً من قبل لأنك لا تعرف الثمن الحقيقي للقبور ...

يستحسن ألا يتبادل الحديث مع أي انسان وإلا فإنه سيرتكب جريمة
ما ذات يوم ...

المقبرة مكان قدر ما دام فيها انسان حي واحد يداهن ويخاتل ليحيا..
صارت الحياة شيئاً قدراً في هذه المدينة ...

يتخط في طريقه الى سيارته والى داره ...

الغروب ، وهو على الشرفة، ويتابع الدم التي يفجرها الغروب تلتفخ
الشوارع والمباني والأفق ...

« وصلت ضيفتك »

هكذا تقول الخادمة التي دخلت دون أن يشعر بوقع خطاها .. يقرأ

على جبينها : ليتك تفرج الليلة وتسهر ، فأبني مريض وأريد أن أنسلل لأراه .

يقول لها : دعها تدخل ، واذهي وزوري ابنك ! تشهق مرتاعة وتخرج ...

بعد لحظات تقف رفاه أمامه جميلة كما هي أبداً .. نسي أنها ستجيء لتستوفيه وعده ! وعده لها بالزواج ، يحسها بعيدة نائية كالشبح أمامه ، ينظر إليها دون أن يقول شيئاً ، ويقرأ في صمتها أنها تقول : ما زلت أتمنى خطيبي ولكنني أحب بيتك القاهر .. ولا أريد أن تعمى عيني كما حدث لأمي الخياطة ...

تظل صامتة ، ويظل صامتا منكمشاً قاسي التعابير الى حد يرعبها ... تحس أنه تغير ، لم يعد ينظر الى عينيها الى شعرها وجسدها ، انه ينظر الى البعيد البعيد وتعابير وجهه تقول انه يفهم كل شيء ... لا تبدو عليها الدهشة حينما ينطق بكلمات مقتضبة تنعبه : مع السلامة ... لا تحاول أن تناقش . أن تتساءل . يبدو أن جوه المكهرب يحطم أعصابها . تخرج وكأنها هاربة من مشهد جثة !

يتهدد بارتياح بالأس ! بارتياح جثة أعفيت من التشويه ومن التمثيل فيها ! لقد انتهت ! اني منخور من الداخل ... أنتصب كعمود عجوف في الصحراء بدأت الثقوب تنفتح فيه كالقروخ وبدأت ریح الليالي المرعبة تتسلل اليه وتهوم بين الثقوب وتصفر وتصفر ألحان الموت المرعبة.. الموت الحقيقي الأصفر ... الموت الوحشي على رماح الكلمات المداينة ، الموت الأعزل في المدينة العجوز كساحرة شريرة ...

سلمى ... وأنيابي ما زالت منغوسة فيك ... كلهم كانت أنيابهم أطول من أنيابي ... كلهم عرفتهم على حقيقتهم .. أما أنت ، أينما اللغز العسلي ، أينما المتحدية الهوجاء ، ما أنت ؟ السبت ! نسيت ان اليوم اليوم وفاتي ... ستجيتن سأطلب



منك ذلك .. وسوف أعاقبك بأن أتزوج منك ... لقد كنت أمهرهم في الخلداع ..

ولكن ، ما معنى ان أختصك وحبك بحقدى رغم اني قد فرغت من الآخرين وتجاوزت هياكلهم المهرثة ؟ هل كنت شيئاً حقيقياً في وجودي حتى انني أحس انك ما زلت حولي رغم انني مضيت الى براري الحقيقة، براري الموت ! يهتف اليها وبصوته الحازم يطلب منها أن تأتي .

الباب يقرع بعد نصف ساعة .. هذه المرة يسمعه .. يركض نحوه بجرأة كاهن قرر أن يكشف الستار عن آلهته ليتحقق منها، من حقيقتها ...

تدخل سلمى ... أبداً لم تخلف موعدها رغم كل ما فعله ! وترتمي نظراته على وجهها، تنطرح انطراحاً على الملامح النظيفة والتعبير المتناسك ..

— أهلاً سلمى ..

— أهلاً بك ، شكراً ...

على جبينها يقرأ شريط الكلمات المضبوطة : أهلاً بك ، شكراً ...

— سلمى أريد أن أتحدث معك للمرة الأولى ، بصراحة ..

— اني دائماً أتحدث بصراحة ...

على جبينها يقرأ شريط الكلمات المضبوطة : اني دائماً أتحدث بصراحة !

— سلمى ، هل تحبيني حقاً ؟

— أجل ! أحبك لكنني غاضبة منك، وسوف أبتعد عنك نهائياً لأنساك ،

من أجل كرامتي ..

على جبينها يقرأ شريط الكلمات المضبوطة : أجل ! أحبك لكنني غاضبة

منك ، وسوف أبتعد عنك نهائياً لأنساك .. من أجل كرامتي ...

— سلمى ... قل لي ، الى أي حد تحبيني ؟

— بلا حدود ، بلا زمن ، كالبحر والأزل ...

على جبينها يقرأ شريط الكلمات المضينة : بلا حدود ، بلا زمن ،
كالبحر والأزل ...

- هل تستطيعين الحياة معي وحدي ... في غابة ، في كهف ، في
أرضي الضائعة بين الصنوبر ؟

- أجل ! أنت عمري وعالمي ، ومع آدم مثلك أرضى بأن أكون
حواء الأولى ...

على جبينها يقرأ شريط الكلمات المضينة : هي كلماتها نفسها ... سلمى
الرائعة التي كان يخافها لأنها لا تتماق ولا تدهن ولا تحدثه باللغة التي كان
قد اعتاد على فهمها .

- سلمى ، سترحل الليلة ! ما رأيك ؟

- الآن ... اذا استطعت أن أغفر لك ...

هذه المرة لم ينظر الى جبينها لم يعد بحاجة الى أن يمارس موته معها
لأنه واثق منها ... معها وحدها يستطيع أن يحيا ... بعيداً ... حيث الريح
والمطر والثلوج ... وهمسات المدى السحيق التي لم يستطيع الإنسان أن يعلمها
الكذب بعد .

وسلمى ...

غجربة بلا مرفأ

(*) هذه القصة تُرجمت إلى الألبانية والإنكليزية والإيطالية.

وجهك ، يا حكاية تشرد جديدة تفوح منها رائحة المطر في شواطئ
عذبة الحزن والدفء .

وجهك ، يا قلق الخصرة في عينيك ، يا شهوات روما في الملامح
الصارمة .. حتام تلاحقني لعنة معبودة ؟ حتام ترسم في عتمة غرفتي وأنا
اطفيء النور لأنام .. فأسمع الضحكة العجيبة التي تفوح منها رائحة لفافاتك..
وأثوق الى أن اتخلل ، أفنى في الرائحة ضبابية منسية ..

الليل قد انتصف . الفيلم الهزلي في التلفزيون قد انتهى ، وقهقهات
جدي الريشة الجذلى واخوتي الأطفال قد هدأت ..

تأملته طويلاً وهو يضحك بينهم بوجهه ذي التعابير الساذجة كوجوههم
رغم أفاعي الزمن التي خلقت فيه آثار زحفها البطيء المرير . أحسست
انني احبه حقاً ، أتمنى لو أرسم على شفتيه ابتسامة فرح دفنت منذ أعوام
مع جثة ابنته الوحيدة : أمي ..

وكان هو أيضاً يتأمل جلستي الى جانب خطيبي كمال والرضى يقطر
من عينيه ، ويختلس النظرات الى يدي الميته بين يديه ليتأكد من انها ما
زالت هناك ، وأنا أترك يدي في يد كمال من أجل الابتسامة التي قررت
أن أرسمها في الوجه الجليل .. بأن ثمن ..

جدي المتعب المهود لم يشك يوماً، ولم يتملح يوماً مني ومن اخوتي

منذ غادرنا أبي الى بلاد بعيدة مع امرأة قيل انها فاتنة وخلف أمي المريضة لتسوت سريعاً ..

ورغم ضيقه من ولعي بالغناء لم يحاول أن يقف في طريقي يوماً .. ولكنه عجز عن إخفاء فرحته يوم جاءنا كمال المهندس الذي يحمل الي قلبه وثروته ..

تراني أقوى على الاستمرار ؟ أرتدي له قناع الفتاة البرية .. تراني أقوى على الاستمرار من أجل ابتسامة جدي ؟

ووجهك يا حكاية تشرد محبة يشدني اليه ، يشد العجيرة النائية في أعماقي .. وضحكك التي أسمع فيها رنين مرساة ذهبية سعيدة لأنها وجدت مرفأها ..

صدرك يا مرفأي كيف أهرب ؟ والليل يسود ، وجدي واخوتي قد انسحبوا الى غرفهم ، وخطيبي قد جلا ، وأقنعتي قد اهترأت وأنا في فراشي أعاني عذاب كل ليلة ..

أدس بوجهي تحت الوسادة أبحث عن النوم لعله يخفي تحت الوسادة فلا أجد سوى وجهك قريباً نائماً ..

وأفتح عيني أتأمل الستائر لعل النوم يخفي تحت الستائر .. وأبحث وراءها .. وراء اللوحة .. وراء منضدة الزينة .. أزيح بأهدابي شعاع النور الخافت الذي ينسل من النافذة الصغيرة ليلقي على الأشياء ، وعلى وجهك فوق الأشياء كلها ظلاً من العتب المرير ..

ويبدأ زحف الوجوه في غرفتي . ويبدأ حشد الصور التي يفجرها الأرق في رأسي .. وعشرات الحكايا .. وعشرات المشاهد .. ووجهك رغم كل شيء .. أحسك تستيقظ في عروقي كما تستيقظ كل ليلة ، تتحد بي ، تطبع ابتساماتك على شفتي وأنف من في دخان لفافاتك ..

الوجوه .. الوجوه الناقدة الغاضبة ، المستعطفة .. والوجوه التي تصرخ

والتي لم تعلم كيف تصرخ بعد ... يا لهذيان الأرق ، يا لمدينته المربعة
التي تستيقظ في رأسي .. يا لعمرى المتعب الممزق نفقاً من ذكريات ..
ودوامات ..

ولا أملك إلا أن أتذكر .. وأتذكر ...

كان البحر مثقلاً بأشعة الشمس ، كان يرتجى كسولاً عاري التوهج
والملل .. وكنت أنيساً وحنوناً حتى نسيت انه لقائي الأول بك .. أنت
الملحن الكبير الذي ييكى المدينة ويضحكها .. وأنا الفتاة الصغيرة التي تتوق
لأن تمنحها لحناً لك تغنيه .. وقلت لك :

— أحب البحر هكذا .. حقيقياً عاري التعب والملل .. بلا قناع من
غلالة قمر .. ينوء بثقل الشمس على صدره رغم حبه لها ..
— انه يجبها في الليل حيناً تكون بعيدة .. هل رأيت البحر في الليل؟
لانه وجه إنسان يحب .. مليء بالظلال والمخاوف والزفريات .

— وحيناً تكون قريبة ؟

— يجبها لأنه يعرف انها ستبتعد بعد حين .. الشرط الأول للحب
الحقيقي هو التحرق الى اللقاء .. هو السعي لتحقيق الطمأنينة .. انه
الدرب الى الغاية لا الغاية نفسها .. يبلغ أوجه في اللحظة التي تسبق ثانية
اللقاء وينطفئ .. بعدها بثوان ..

— انها لمأساة .. ان نقضي عمرنا ركضاً وراء كأس لأننا نموت إذا
لم نشرب منها .. وإذا وصلنا اليها ، وشربنا منها متناً أيضاً .. في الحالة
الأولى يقتلنا الحب والوجد .. وفي الحالة الثانية يقتلنا اللاحب ! يقتلنا
أن نفهم أنفسنا ..

— ولكنك صغيرة .. هل تؤمنين حقاً بما تقولين ؟

— أجل ! للأسف .

— غيتي .. قولي أي شيء ..

وأغني .. وأغني حكاية الأعماق البكر التي لا يطالها انسان .. أغني
حكاية العزلة التي لا مفر منها لمخلوق ..

كل منا في قصصه الزجاجي العازل .. نتخاطب دون أن نسمع أحدنا
الآخر .. نقضي العمر نائمين في الغابات .. في الشواطئ .. بين الجزر ..
بلا مرفأ بلا مأوى .. حتى إذا ما أطل مرفأ من بعيد .. أدركنا أنه
ليس لنا ..

— صوتك مقعم بلوعة غامضة ، ومرارة تحرك وترأ دينا في أعماق
الناس جميعاً .. سوف تنجحين .. اني أفهمك جيداً .

سعداء .. سعداء بحكاية التشرد كنا . لماذا تهاجمني الوجوه هكذا ؟
أيها الأرق الممزق ، ألم عن أهلامي ننف السعادة التي عرفناها ..
ابتها الوجوه التي تنبع من غوري وجبني وضعفي .. يا وجوه الذين أحبهم
والذين أكرههم .. أعرف ماذا تمثلين .. أعرف انك من بعضي ... كما
أن وجهه من بعضي ..

وأنا أمزق كحيوان خرافي له رأسان كل رأس يتجه الى ناحية معاكسة
للآخر .. أيها الأرق دع المدينة في رأسي تهدأ .. دعني أنس .

... مرة ، وكان الليل اسطورة خضراء تندفق من عينيك لتملأ البحر
أمامنا .. مددت لي يدك ، وألف حكاية ضياع على كفك .. ولم أتردد ..
عانقت يدي حكايا الضياع في كفك للمرة الأولى عرفت نشوة السحب
التي تئن رعداً حيناً تصعقها رعشة اللقاء ..

وانبثق البرق في عيوننا وأحسست النار تنتقل من يدي الى حلقي ..
أخذت أنفسي بصعوبة لم أعد بحاجة الى التنفس لأحيا ما دمنا هكذا ..
وتظاهرت بأنني أريد أن انتشل يدي من يدك كي تزيد في حصارك لها ،
كي تشدد قبضتك عليها حتى تفتت أصابعها وتحيلها اصبعاً واحدة جديدة
تنضم الى أصابع يدك أبداً ..

واستمر العراك الرائع دقائق وجيزة .. وكسمة عشت شبيكتها
استرخت يدي في يدك .. وهنا حنوت عليها ، وأمست بها من أصابعها
برفق وقربتها من الشمعة الحمراء التي توسطت منضدتنا .. وكان نورها
التحيل يتسلق جانب وجهك ، فأحسسته دفتر حنان غنياً بالكلمات الدافئة ،
غنياً بحنان المرافء الغارقة في سحر أمسيات شرقية مثيرة ، وأنا غجيرة
تبحث عن مرفأ حنان ..

ثم أخذت تقرأ كفي أو هكذا ادعيت .. كنت تمسك بكفي وتقرأ
في عيني وتغوص في مجاهلها لتروي يؤس دروب ما لها آخر ، ولتشم
رائحة أمطار حزينة تلاحق العجيرة النائية ، ولتسمع صرير أبواب صدئة
لم تفتح منذ زمن بعيد ، ونمت على الأحجار حولها فباتت الشوك والعليق
لتملأ المكان بالتحش والنفور .

وقلت لي : هناك عجيرة ملول ..

— تحب ملها ..

— لا دار لها ..

— ولا تحب أن يكون لها دار لأنها تكره الأقنعة .. المدينة قناع

ترتديه الغابة .. وهي ما زالت ابنة الغاب ..

— هنالك رجلان يتنازعانها .. أحدهما يحب أن يمنحها داراً .

— وقناعها يحب الدار .. وهي ترتدي قناعها كي ترسم ابتسامة على

وجه الذين تحبهم وتحس أنها مدينة لهم ..

— والرجل الآخر لا يملك لها سوى حكاية تشرذ جديدة ..

— وهي راضية بها لأن الدار عرّض ، أما الغربة والحزن فحقيقة

الوجود الانساني ..

وهي تبدو طفلة تبحث عن الشهرة بغنائها العذب .. لكنها كما لا

يعرفها أحد ، تعيش أحراناً نائية سحيقة الأبعاد .. تعيش ذاتها المفعمة

باللامبالاة والتشرذ والتوق الى حنان تعرف أنها لن تجده ...

- وهي لذلك أحبت الرجل الذي يمثلها والذي يحمل لها في وجهه
 حكاية لاميالة وتشرد وحنان .. ان حبها له تقديس لذاتها .
 - بل تكريس لرجسية الفنانة فيها ..
 - وماذا ترى أيضاً في عيني .. اقصد .. كفي ..
 - أرى عجزية تحب بحثها عن المرفأ أكثر مما تحب المرفأ نفسه ..
 سوف تكرهه إذا وجدته وإذا قيدت صخوره مرساتها .
 - ارثي لهذه العجزية التي تجرر مرساتها ومأساتها تائهة في البحار ..
 - بل انك تحسدينها .. أنها في نظرك تمثل حقيقة الحياة .. أنها تمثل
 عار لحقيقة الوجود البشري .. ستكونين بائسة يوم تتخلين عنها ..
 - وماذا ترى أيضاً في عيني .. اقصد .. في كفي ..
 ولعلك رأيت حقاً .. ولذلك صمت .
 آه لماذا لا أملك إلا ان أجتر كل شيء ؟ هذا الأرقى الرهيب ينكأ
 الجروح ... يمر بعصاه السحرية على قبور الماضي فتهب الحكايات من أكفانها
 حية جديدة والتزف ما زال حاراً في جراحها .. يا لحيية عمري .. كيف
 أنسى !
 .. وكان وجهك يتألق بحبوية تشع أملاً لما قلت لي : دعينا نرحل
 معاً ... الى أي مكان .
 كم كانت الفكرة رائعة .. لن تمزقني غيرتي بعد اليوم وأنا أعرف ان
 زوجتك التي تغفو الى جانبك طوال الليل تسرق من صدري أنفاسك ..
 تمتصها من وسادتكما المشتركة .. سوف تبقى معاً .. نتشرد معاً .. وأنفاسك
 لن تكون لغيري .. وصدرك مرفأي وحدي ..
 ولكني رأيتكم مساء تسرون .. أنت وزوجتك وأطفالك .. وكنت
 أقربكم من بعيد . أسير وراءكم كالذئبة التي صممت على أن تختطف راعي
 القطيع ..
 وببساطة تمنيت أن أمزق زوجتك .. أن أفترسها .. ولم أخف نفسي

عن نفسي وراء قناع حنان مفتعل او رافة مصطنعة . اني أمقتها ..
ولكن لإحدى بناتك تعثرت .. وسقطت على الأرض بحنان .. وبكيت
أنا .. بكيت في الشارع .. بكيت لأنني طالما سقطت ولم يرفعني أحد ولم
يرفعني أبي لأنه كان قد هرب مع امرأة ضائعة مثلي ..
وليلتها جاء كمال بمنحني عمره .. ولم يكن علي أن أسرقه كي يكون
لي .. وليلتها رضيت . لا من أجل زوجتك .. ولكن من أجل الطفلة
التي كنتها ذات يوم .. رضيت كي لا تكبر طفلتك مثلي وتصبح عجيرة
مشردة بلا مرفأ ..

ولكني أرفض أن أصدق .. كيف أتركك وأمضي بعيداً ؟
وحكاياتنا الحلوة الصغيرة ؟ والناس الذين كنت أغني لهم بصوتك في
حلقي، بأنغامك في صدري ، والجرأة التي كنت تمدتي بها فأواجههم بها،
والنجاح العذب ، النجاح الكبير حيناً أثير في صدور الغرباء مشاعر كالتي
تعيش في صدري. أصنع لنفسني اسرة كبيرة مجهولة تشاركني ضياعي وغريبي..
وأنت .. وأشياؤنا الصغيرة ... وضحكاتنا ..

مرة .. وكنت الى جانبك في سيارتك المشحونة بالفوضى .. وكنت
أرغب الشوارع والمارة والمخازن الملونة ... وفجأة هتفت: ما أجمل ذلك !

وسألتني : ماذا ؟ هل هو شاب أعجبك ؟

— لو كان شاباً أعجبني لاكتفيت بغصة تموت في حلقي ..

— هل هي فتاة جميلة ؟

— لو كانت فتاة جميلة لنظرت اليها بصمت ، ثم لاختلست النظر

الى وجهك لأرى اذا كنت تنظر اليها أم لا !

وكانت دوامة من الضحك الرائع .. أنت لي .. ستنظر الى الوجوه
كلها ولن ترى إلا وجهي .. وستضم اليك عشرات الأجساد ولن تحس
إلا بصلابة يدي في يدك .. أنت لي .. بل كنت لي .. لماذا أعذب نفسي ..
وماذا بعد يا ليلة الأرق الممزقة .. وهذا السرير الذي صار قسيساً

كأنني أنا التي أحمله لا هو الذي يحملني .. فلأخرج من غرفة نومي ..
أنهض .. أتسكع في غرف الدار المظلمة شبح قتيل لم يثار له .
وشريط عمري المتعب ينزلق ، يلاحقني ...
... وكنت في المقهى مع بعض الأصدقاء لما احتد النقاش ، ووجه
أحدهم كلامه لقناع الفتاة ذي الملامح الجادة : قولي ، ما رأيك ، ماذا
نصنع ، ما رأيك بتوزيع المناشير ؟
وتتحمس الحمقاء وتخطط .. وتنفلد .. آلة من الآلات البلهاء المنومة
تنويماً عقائدياً .. فتاة من فتيات المدينة تلعب أكثر من دور ، ينزلق على
وجهها أكثر من قناع ..
لكنه وجهي الحقيقي ، وجه العنصرية يسخر من الحماة ، وضجيج
النقاش في أذن الأبدية طنين بعوضة .. لا شيء يهز ابنة الشوارع المظلمة
الفارغة وخطاها التي تجهش على الأرصفة الخشنة ..
إنها تحب الخير والحق والحرية والمبادئ التي تدعو إليها الأحزاب جميعاً
لكنها ليست مسؤولة عن أي شيء في هذا العالم .. ليست مسؤولة عن
أحد ، لا أحد يهيمه أمر أي إنسان آخر ، وكلنا حبات عنب متفرقة
انقرطت من عنقود مجهول ولن يلم شعثها تشريع او عقيدة او نظام ..
لماذا أناقص نفسي ؟ ما معنى رغبتي الطاغية برسم ابتسامة على شفة
جلدي ؟

ما معنى خوفي على ابتلاك من أن تكون مثلي اذا غادرتها ذات يوم ،
عنصرية بلا مرفأ .. لماذا أدعي ان لا ارتباط لي بالآخرين ؟
ولكنني لا أدعي ذلك ، انني أحيا بصدق عزلة شهاب يهوى وحشته
لعله قناعي .. هو الذي يرتبط بهم بطريقة ما ، قناع الفتاة المهذبة صار
جزءاً من وجهي ، ترى لو انتزعت هل يتبقى أي شيء تحته ؟ ألم يتأكل
وجه العنصرية مع الأيام ؟ لو هجرت قناعي هل يتبقى لي اي وجه ؟
ترعيني الصورة وأهرب منها الى الشرقة .. وفوران الوجوه المحموم

ما زال يلاحقني .

... البارحة صباحاً ، والمطر يغسل نوافذ سيارة كمال التي حملني بها لأرى دارنا الجديدة التي تم إعدادها والمطر يبيكي ويبكي لتبدو الشوارع والوجوه من خلاله غريبة وسحابة البعد . كأنها ذكرى دامة لحكاية تشرّد غالية ، همس كمال : اني سعيد بك ... لا أستطيع ان أصدق انك ستكونين لي بعد أيام ..

ولم أقل له انني أنا أيضاً لا أستطيع ان أصدق .. أحسست انني دمية مقيدة بخيوط لامرئية الى أصابع لاعب مجنون يحلو له أن يجركننا كما لا نشاء ، يدفع بنا الى حيث لا نريد ، ينتشل من دربنا الأشياء التي ننشئ . ووجهك كان يذوب في المطر .. وحكاياتنا .. وأحانك .. والعجربة التي أضاعت المرفأ لما فقدت وجهها . وفقدت وجهها لما علمت ان المرفأ ليس لها .

ويهمس كمال : ستغنين لي وحدي بعد اليوم ..
يضحك القناع بفرح عروس صغيرة تقبل على حياتها الجديدة .. وينحل وجهك في المطر .. بعد غد أرحل معه .. هذا الليل متى ينحسر ؟ اني متعبة ووحيدة كالآلهة وكالأبالسة .

أعود الى غرفتي .. أرتدي ثيابي وأنا لا أدري ما أفعل .. أسير نحو باب الدار .. أفتح الباب لأخرج .. الى أين ؟
وأعود الى غرفتي .. أرتدي منهكة على سريرتي .. تنهار مدينة الأرق على رأسي .. تراكض الوجوه .. وتدور ، تعول ، تضحك ، تصرخ ، تقترب ... أسقط في هوة عميقة ... استسلم للعذاب المبهم الذي لا يوصف .. العذاب الذي لا يتركز في عضو من الأعضاء ولا ينبع من فكرة معينة ، عذاب شامل ممزق يشمل ابعاد وجودي كلها .. وأستسلم ..

بصعوبة أفتح عيني .. ضوء الفجر ينسكب من النافذة خافتاً رمادي البريق .. أنفض من غيبوتي صافية الحزن ، كصخرة طهرتها الرياح والأمطار .. يجب أن أسير قليلاً وحدي ، يجب أن أرسخ هدوئي .. أن أستكين

لمصري المفجع الذي لم أصنعه أنا ..
 أفتح باب الدار بهدوء ، ما زال جدي واخوتي في براري الأحلام .
 أنا في الشارع وحيدة .. الشارع الطويل الحزين الذي ينسحب الظلام
 الى زواياه بينما الفجر القضي يحتل أرصفته ويشع من التوافد المبعثرة .. لم
 يستيقظ أحد بعد .. ما زالت المدينة تغط في النوم ، تنعم بالموت الموقت ..
 وأنا العجربة النائية في مدينة الأساطير النحاسية تبكي المرغاً الضائع ..
 تبكي الدروب التي نجبر على السير فيها ، والغرباء الذين نقضي رحلة العمر
 معهم ونمثل السعادة وفرحة اللقاء ..

' هذا انسان يطل من بعيد .. يسير ببطء في أقصى المنعطف .. يتجه
 نحوي .. يقترب .. يضرب الأرض بعصاه .. انه صديقي في الشارع
 الميت .. صديقي في المدينة النحاسية .. صديق تشردي في الفجر الذي لا
 يريد أن يضيء .. يقترب .. يسير متجهاً نحوي تالهاً لا يراني .. يا الله ..
 انه أعمى . صديقي أعمى يضرب الأرض بعصاه ويسير في دروب مجهولة
 لا فرق لديه بين الفجر والغسق .

وأحس بارتباط عميق بيني وبينه .. وأسير الى جانبه .. دون أن أسمع
 وقع خطواتي ..

أسير الى جانبه أتحسس الأرض بعصا نظراتي وهو يتحسسها بعصاه ..
 انه يتحدث .. يحدث نفسه .. لا يعني ما يقول .. وأنا أيضاً أهمهم .
 أحدث نفسي .. ونسر .. ونسر .. ونلوح من بعيد كل إنسانين صديقين ..
 يغمرني ارتياح مفاجئ فأنا معه أمثل أقصى ما يمكن أن تصل إليه أمن
 الصلات الانسانية .. بلا زيف وبلا افتعال للحديث ..

والى جانب الأعمى أسير .. كل يحدث نفسه .. وتطلع الشمس ..
 وينسكب الناس في الشوارع .. وتفور فقاعات الوجوه حولي .. ويضيع
 الأعمى مني في منعطف ما ..

القييد والتأجيل

وتمزق ظلمة غرفة النوم الأنيقة صرخة ميرنا . صرخة فيها من الأنين اليأس أكثر مما فيها من النداء المستنجد .

ويقفز فؤاد من سريره ليضيء النور بينما تستحيل صرخاتها الى كلمات :
« فؤاد .. مات أبي .. مات أبي .. »

يقرب منها ويمسك بها من كفيها . يحاول أن يغمرها بتظلمات دافئة حانية ، ولكنه رغمًا عنه يحس برعدة باردة وخازة تحتاج جسده بينما هو ينظر الى عينيها السوداوين ويرى أنهما ازدادت اتساعاً وعمقاً ، وان أشباحاً من غيوم سود معولة تدور فيها كدوامتين مرعبتين في عيني عرافة ..

— ميرنا .. ماذا حدث ؟ كنت تحلمين ..

— للمرة الثالثة .

— كفك أوهاماً ..

— وكان أبي يلتهب فوق غابة موحشة ..

— كفك أوهاماً ..

— وكانت النجوم فوق الغابة ترسل أضواء حمراء كاللهب الذي يخرج

من فم تين ..

— كفك أوهاماً ..

- ولم يكن يصرخ أو يستنجد .. ثم سقط بين الأشجار سحابة من
رماد ..
- كفى .
- ثم هبت ريح مشحونة بالعويل وبموج شرير كأياب ذئب أعمى
وغمرت الغابة ..
- ميرنا .. ما هذه الأوهام يا عزيزتي ؟
- وتصمت ميرنا ، ولا يجرؤ فؤاد على النظر في عينيها ثانية ، ويهرع
ليطفىء النور خوفاً من صني العرافة .
- تنتهد ميرنا بارتياح حينما يرتمي الفجر من النافذة كأنها قضت الليل
كله وهي تفرغ أمواجه السود بعيداً .. وبصدفة مثقوبة ..
- وها هي أمواجه قد انحسرت ، والشمس الحبيبة ، كم تحبها اليوم
لأنها طلعت أخيراً ..
- لم تعد تستطيع الانتظار . تركض الى الهاتف أصابعها تشنج فوق
القرص وترتجف ، يقلق متهم ينتظر القرار الأخير ..
- ألو .. أريد أن أتحدث مع أبي ..
- صوت مزوج بالدهشة يجيب : ولكنه نائم .. هل أوقظه يا سيدتي ؟
- أجل !
- تمر لحظة صمت تحسبها طويلة ..
- وتسمع صوته الحبيب متخماً بالنعاس :
- ألو .. ميرنا ..
- صباح الخير .. (يسمعها مرتعدة لاهة) ..
- هل جرى شيء ؟ ما بك ؟
- أبداً .. لا شيء ولكن ..

- انها السادسة صباحاً .. هل حدث شيء ؟
— لا .. آسفة ولكنني ..
— ماذا ؟ قولي .
— أحييت أن أذكرك بموعدا الليلة ..
— طبعاً حبيتي .. سوف نسهر عنك كما اتفقنا .. والآن .. قولي
السبب الحقيقي الذي جعلك تهين الآن .. هل فؤاد يغير ؟
— أجل . انه نائم .
— والأولاد ؟
— لا تقلق . لا خطأ في الدار . الخطأ في ساعتي التي تشير الى الثامنة
والتي جعلتني أزعجك .
— هذا غير صحيح ..
— لماذا ؟
— ساعتك هدية مني انقيتها لك بيدي . وأنا عادة انتقي الأشياء التي
لا تخطيء .
وتصمت . كم تحب ذكائه حتى حين يوقع بها . ستعرف .
وينقلدها بضحكته الحلوة وهو يقول : على أية حال أنا مسرور لسماعي
صوتك .. الى اللقاء .

•••

آذار جنبة شريفة انطلقت في شوارع بيروت تنفخ الريح الدائمة بالمطر ،
وتكدس آمانها المقللة بالغيوم على صدر الشوارع الحزينة .
ومرنا ، رغم الفرقة الدافئة وضحكات الضيوف المرحية ورائحة الشراب ،
نحس بضيق عجيب .
نحس انها وحيدة تسير في الشوارع الطويلة الحزينة وان الريح الدائمة

بالمطر تمزق خديها وعينيها وأهدابها .. تسير بحثاً عن شيء تخافه .. قلقة
كأن ضربة مجهولة ستقتضض عليها ، بقسوة ، بطريقة ما .

يميل عليها فؤاد هامساً : ميرفا ماذا بك ؟

تبسم ، ويتذكر الموناليزا : لا شيء يا فؤاد .

وتتأجج النار فجأة في ركن الغرفة . يرى الدوامتين الحمراءين في
عينها الغامضتين كعيني عرافة .. ويحس بالرعلة الباردة الوحشة ، وتعود
ضحكة أميل لتطرد كل شيء من عينيها ومن عروقها .. البرد ، ودوامتا
الدم ، والشوارع الحزينة ..

وتأملوه وهو يتكلم دون أن تسمع ما تسمع .. هذا الوجه الذي يتقد
حيوية وجعراً ، هذه الملامح التي تنبض عضلاتها برقصة الحياة المرحية ،
هل يمكن أن تبدأ .. لا .. لن تستسلم لذلك التذير الموجع في صدرها ..
لن تستسلم لأحلامها المزعجة .

وتعود ضحكة أميل لتطرد كل شيء .. يطفح وجهها بشراً وتمديدتها
لتأخذ الكأس التي أعدها فؤاد لها . وإتسامة دافئة . ونمر يقصك . وأنها
رائعة . وصورة أبيها على الحائط وراءه . والأولاد نائمون . والغرفة
دافئة . كل شيء بخير .. لماذا تهرب ؟

ولكن شيئاً غريباً دخيلاً على الأصدقاء تحسه يتسكع في الغرفة . وتلتفت
حولها .. من الغريب ؟ من الدخيل الذي كانت تبحث عنه وتخافه في
تبعها المبهم في الشوارع الحزينة الفارغة ؟

من الدخيل ؟ لا تراه .. لكنها تشم رائحة كآبة عتيقة تفوح من
كيانه المبهم .. لكنها تسمع همهمات الشرسة عقب كل ضحكة من ضحكات
أبيها . لكنها تحسه محشواً في مخمل الستائر .. في المخمل الأسود السني
يغطي منضدة جانبية صغيرة عليها تمثال أسود لحيوان غريب الهيئة، حيوان

خرافي تجمعت الهمجية والشراسة والعشوائية والسخرية في اقتراجه أنيابه
المديبة .. هذا التمثال ، لا تدري لإلام يرمز ..

تسمع أباهما يهتف فجأة : لقد أحضرت لك هدية يا نمر ..

ضاحكاً ، يسأل نمر : أظنك أحضرتها رداً على هديتي الفاخرة .

— وما هي هديتك الفاخرة ؟ تسأل ميرنا .

— لقد أهديت والدك .. قيداً ذهبياً نحمله به الى الذين حكموا عليه
بالاعدام في البلاد المجاورة ..

ويخرج أميل من جيبه قيداً ذهبياً اسطوري النقوش كأن صائغه من
غير البشر .. بينما يرفع نمر رأسه ضاحكاً :

— نخب لإعدام صديقنا العزيز ..

وتتفصص ميرنا كأنها تسمع مسرحية مذهلة وتتنظر الى أمها لورا مستنجلة
بينما يشرب أميل ببساطة .. ويشرب .. ويشرب نخب لإعدامه ..

وتحس حاجتها لأن تصرخ . لكن نظرات فؤاد المحلدة بالمرصاد ..
انه يفهمها أكثر مما ينبغي .

ويكمل أميل بينما هو يضع القيد الذهبي على محمل المنضدة الصغيرة
أمام تمثال الوحش المجهول : والآن ، خمنوا ماذا أحضرت لنمر .

— لا شك انك أحضرت لي هدية من صنع الصائغ نفسه .. الآن
أفهم لماذا سألتني أن أرشدك الى من صنع القيد وادعيت انك تريد شراء
سوار للسيدة لورا ..

— فعلاً لقد ذهبت الى الصائغ نفسه .. سرت كما قلت لي الى « شارع
الزعقة » ودخلته من جهته الشمالية وبدأت أعد المخازن على الرصيف
الأيمن حتى وصلت الى المخزن السابع ..

— اذن فقد قابلت الرجل العجيب الذي حدثتك عنه ..

- رجل ؟ سمه كذلك مجازاً اذا أردت .. انه لا يشبه الباعة أو الرجال في شيء .. انه ..

وترهف ميرنا أذنيها لسماح وصف الرجل العجيب الذي يشتران منه هداياها ، ولماذا هو عجيب ؟ لكن أباهما يمسك فجأة عن وصفه كأن قوة لا تقهر تسيطر على لسانه ..

- انه على أية حال صائغ مدهش . لقد أوصيته على سوار للسيدة لورا فرفض أن يصنعه . لكنه أبدى استعداداه لصنع هديتك عن طيب خاطر ، وكاد يرفض الثمن .. قال انه سوف يتقاضى الثمن من ..
- ممن ؟

- لا يهم . دعني أقدم لك الهدية الرائعة .
وتحمد ميرنا وهي ترى أباهما يخرج من جيبه تابوتاً ذهيباً صغيراً .
ورغم امتناعها لا تملك إلا الاطعاب بدقة صنعه بينما تهمس السيدة لورا منومة : حقاً ، كأنه ليس من صنع البشر ..

ينفجر نمر ضاحكاً بمرح عجيب :
- يا للهدية الرائعة ! تابوت رائع ، نعمين .. سأحتاجه ذات يوم بشرط ..

- ماذا ؟

يضحكان ، وتفتعل ميرنا الضحك . تجاربا أمها وفؤاد .. ويمرر اميل التابوت الى ميرنا وأمها وزوجها الذين يقبضون عليه واحداً بعد الآخر بضيق مبهم ويدهشون إذ لا يحسون له وزناً في أيديهم كأنه سحابة وهم ذهبية ..

وأخيراً يصل الى يد نمر الذي يطبق عليه بكلتا يديه في حنو عميق ويهزج فرحاً : عظيم يا اميل ! انه يتسع لي .. أظنه مريحاً ..
ثم يضعه فجأة الى جانب القيد فوق المخمل الأسرد أمام تمثال الوحش

الغامض السخري ..

وتتفشي السهرة وهي لا تسمع شيئاً سوى آذان ، الجنية الشريرة التي انطلقت في شوارع بيروت الطويلة الحزينة ، وفي شارع الزهقة ، وأمام المخزن السابع الذي اشترى منه هداياها البيضاء ..

وقبل أن تنام ، تتذكر ان ضيوفها قد نسوا هداياهم ..
وتعود الى الغرفة فترى القيد والتابوت أمام تمثال الوحش المجهول ذي الأنياب الساخرة .. ولا تجرؤ على الاقتراب منها أو لمسها لأنه يخيل اليها ان تمثال الوحش يقهقه بصوت مسموع ..

...

ترفع ميرنا سماعة الهاتف بتكاسل .

— ميرنا .. صباح الخير .

— أهلاً ماما .

— كيف أنت ؟

— بخير .. ما أخبارك ؟

— لا شيء .. سافر اميل ونمر .

— كيف ؟

— بالطائرة .

— وهذا الجو اللعين ؟

— قال ان الجو بالذات يغريه ..

...

ترفع ميرنا سماعة الهاتف بتكاسل :

— هالو .. نعم .. نعم .. ماذا ؟

تصرخ فجأة وقد استحالت كسلها الى تحفز نمرة مفتوحة الجرح :

— ماذا ؟ ماذا تقول ؟ مستحيل .

تصرخ. سماعة الهاتف تسقط من يدها وتنوس معلقة في الهواء كلراعي
 يائس يهوي ..
 - لا يمكن أن يكون أبي قد مات . لا يمكن .. طائرته سقطت في
 البحر ؟ مستحيل ..
 وتركض باكية مجنونة الى سيارتها ، وتندفع بها في الشوارع التي طالما
 عرفته وأحبته ، الى داره .
 تسلق الدرج ولا تتمح آثار أقدامه عنها .. تدخل الدار مجنونة ...
 هذا مقعده .. ما زال موضع جلسته فيه مقعراً .. لا يمكن . أين ..
 أين أمها ؟
 - ماما .. ماما .. البابا مات .. مستحيل .. قلت انه سيعود ..
 متى ؟ متى ؟

أيام من المباب الأسود الملطخ بالدمع . يبدو ان السدين يذهبون لا
 يرغبون في العودة . ان أحداً منهم لم يعد قط ..
 وفي الشارع ، يشيعون جثة نمر في تابوت ، لا تجرؤ على أن تطل
 من النافذة لتراه ، لا بد أنه ذهبي اللون ..
 أما أبوها ، فسيظل أبداً بلا تابوت ، مقيداً الى أعماق البحر حيث
 الصمت والظلام الملون الرهيب .. آه كم كان يكره الصمت !
 وتنفجر دوامة الدم في عيني العرافة بينما تدخل أمها صارخة : ميرنا ..
 ميرنا .. أين هدايا أليك ونمر ؟ أين القيد والتابوت ؟
 - في مكانها حيث تركاهما .. على المنضدة الصغيرة .
 - لم أجد شيئاً .
 - لعل أحداً قد غير مكانها .

— سألت الجميع . قالوا إنهم لم يروا شيئاً ولم يلمسوا شيئاً . وبدت الدهشة على وجوههم وأنا أصف لهم القيد والتابوت ..
وتسير ميرنا نحو الغرفة بصمت جريح مليء بالكبرياء .. بصمت من بدأ يجد الحقيقة .

كانت واثقة من أن أحداً لن يجد بعد اليوم القيد والتابوت . فالتقيد القيد تراه الآن يشد أباها الى أعماق البحر حيث الأعشاب الرخوة وأسرار القاع ..

والتابوت .. تراه أيضاً في الضبابية نفسها يضم جثمان نمر ! لقد قال نمر انه مريح .. تراه وجده هكذا حقاً ؟
بصراحة تخاطب أمها : لا تبحي ، لن نجدهما .
— لماذا ؟

— لأنهما من المخزن السابع الذي ..
وتلتقي نظرات الأم وابنتها . ومضة برق تصل بين عيونهما . فهما بصمت ما لا يفسر ..

ميرنا تسير نحو « شارع الزعقة » . تدخله من الناحية الشمالية . تعد الدكاكين واحداً بعد واحد على الرصيف الأيمن .
آذار جنية شريفة ما زالت تنفخ الريح الدامعة بالمطر والعيول الغامض . وهي تقاوم فكرة مرعبة جاءت لتتأكد منها ..

إنها تحصى المخازن : مخزناً . اثنين . ثلاثة . أربعة . خمسة . ستة .. ستة مخازن فقط .. اين المخزن السابع الذي اشترى منه هدايا الموت ؟

من هو الصائغ العجيب الذي أمسكا عن التحدث عنه في اللحظة الأخيرة ؟

لم يكن في وجهها دهشة ، فقد كانت واثقة من أنها لن تجد
المخزن ..

كان فيه رعب حاقط مستسلم .. ادراك مكثف للحقيقة المفجعة ..
للمخزن السابع في كل مكان والصائغ الذي يهدي الجميع .

الاصبع العاشر

على شرفة القصر أقف خائفة ضائعة ، جمرة شتاء شتتها بين الموانئ
فما أضاءت في عتات خوفها متارة ، ولا ومض هذب .

سما المدينة ترعف الضباب والمطر ، رائحة الخريف ، رائحتك ،
شممتها في كل مكان ذهبت اليه .. رغم كل ما فعلت وما قد تفعل ..
لم أتحّد عليك .. ولم أمقتك . كان علي أن أبتعد ما دمت قد طلبت
ذلك .. كان علي أن أمضي كي أظل أحبك دونما مهافة .. ثلاثة أعوام
وأنا في لندن أتم دراسي العالية كي أظل بعيدة .. ثلاثة أعوام وأنا لم
ألتق منك كلمة ، ولم أسأل عنك قط ..

وها أنذني قد عدت ليطل شبحك من كل مكان ويسد منافذ الهرب
كلها .. ها أنذني الآن أقف خائفة على الشرفة ، أتأمل قطيع الضيوف
الذي جاء لتحتي .. وهاماتهم التي تضيع خلف البساب الواسع وتبدو لي
من الأعلى منحنية كأنما هي تقدم ولاءها لأبهة القصر وضخامته .. أحاول
أن أنلهي على شبحك الحبيب البغيض بتأمل ثياب النساء التي تلتصع حليها
في الظلمة .. وتتوهج ألوانها حينما تسقط عليها أضواء المدخل .. وهكذا
عدت الى سوق الغرور أتأمل مدينتي من بعيد .. اني أعرفها .. انسي
أحبها وأحقرها .. أحس اني غريبة عنها ، وأحس اني مشدودة الى
أصيق زقاق فيها بقدرية مهمة عجيبة .. بالقدرية نفسها التي تدفعني الى
أن أظل أفكر بك على الرغم مما فعلت .. على الرغم من انك طردتني

ذات مرة بلا ذنب .. أحقاً انك وعدت أبي بأن تجيء الليلة لتعزف احتفالاً بعودتي ؟ أحقاً انك أضحيت أغني وأعظم فنان في المدينة وان أجمل النساء يسجدن لأناملك المبدعة ؟ أحقاً انك فرضت اصبعك السادسة على المدينة كلها ودخلت الشهرة من بابها الضيق ؟ إن كنت قد فعلت ، فأنت عظيم حقاً كما عرفتكَ دائماً ! هل تصدق ؟ أمي التي كانت تأنف من تحيتك ، أمي نفسها حدثني عما يسمونه جاذبيتك ، وقالت لي انك يا زميل الدراسة لم تعد فقيراً ، وانك توهجت ، بعد سفري بأشهر ، نجماً من نجوم مدينتنا . كم يسعدني ذلك .. اني رغم كل شيء لا أحقد عليك .. لا .. ولم أكن بحاجة الى كلمات أمي لأذكرك ، أنا التي أنامل الوجود من خلال كفك العجيبة بأصابعها الست منذ التقينا للمرة الأولى.. تراك تذكر ؟ تراك تذكر يوم جئت الى الصف بعد الوقت المحدد بدقائق ، ولكلا أعرض نفسي مدة طويلة لسخط الأستاذ الغاضب جلست في المقعد الأول الذي صادفني وكنت تجلس يا خالد هناك .. وقبل أن أنصت الى حديث الأستاذ ، وجدتي أنفص بخوف .. كانت هناك على المقعد يد .. يد عجيبة تحفة لها خمس أصابع عادية كما للأيدي جميعاً ، ولها اصبع سادسة متمردة وقحة انتظمت بلامبالاة حقيقية الى جانب بقية أخواتها الخمس .. ووجدتني دون قصد مني أشارك الزملاء في نظرات الفضول المنصبة على يدك ، وكأنما أحست اليد المسكينة بذلك ، فتقلصت أصابعها الخمس العادية وانكمشت الى الداخل وظلت الاصبع السادسة متحدية وظل الزملاء يتأملونها وشحنات القسوة والبغضاء تود لو تصعقها ، لو تسمح عفويتها وطيبتها . ووجدتني أنتزع من نفسي عيون الآخرين المدقوقة في نفسي . وجدتي أنامل اصبعك السادسة بنظرة حيادية صافية.. وكانت اصبعاً متمردة متكبرة ..

وأحسستها فجأة كائنات طيباً لا ذنب له في انه موجود .. وكأننا مدهش التحدي والنبيل .. ولعلك لاحظت شحنات حقننا الشريرة ، وكان المدهش

الذي هزني هو انك استلقت يدك الثانية من صدرك ووضعتها الى جانب
أخفها على المنضدة بلامبالاة محبة .. وكان فيها ست أصابع أيضاً! وآمنت
لحظتها بأنك شيء يختلف تماماً عن بقية الزملاء ، انك تصفع وضاعة
الناس وفضولهم بوضوحك ولامبالائك وعزوفك عن الاحساس بالذنب
الموهوم .. وكان علي أن أرى الوجه الذي يحمل لعنة هذه اليد ، وكان
وجهك يعكس ما توحى به اصبعك السادسة .. كان عوالم غنى ولامبالاة
واكفاء .. رائعاً كنت .. حقل سنابل أنضجته الشمس، رائعاً وجدتك ..
هاديء الوعدات رزين الصخب .. رائعاً كنت لما بسمت في وجهي بخنان
كأنك فهمتني .. ملأني بغبطة أول شراع لم نسمة .. يا أبدع نسمة ..
يا أنت .. كنت تعرف انني أحبيتك حقاً وأحبيت أن أقاسمك حياتك ،
أية حياة .. أن أنبد البيت الفخم لأعيش معك في الدار المتواضعة، كنت
تعرف انني ما أحبيت إلا اصبعك السادسة .. أنا وحدي من دون الناس
جميعاً أحبيتها .. وجدتها شيئاً ناشزاً مدهشاً في سيمفونية المدينة .. وأحبيت
سوك وأنت تحملها وتواجه وضاعة العالم المتأنق بها .. بقبحها وصدقها ..
وأحبيتك وأنت تواجه قسوة فضول الآخرين باستهثار واعتزاز .. كنت
تفهم معنى التغلب على الاحساس بالذنب الذي يكبلوننا بأهدابه حيناً مختلف
عنهم في شيء ما .. كنت بكلمة واحدة اصبعاً سادساً كبيرة متحدية
نظيفة لا تشبه أحداً في شيء ..

أجل .. أحبيتك هكذا .. وهكذا وضعت يدي الطفلة في يدك البديلة
التي غسلتها الشمس ولم تدنسها المدينة .. وهكذا اكتشفنا الشاطئ الحلوى ..
يا خالد .. اني أراك الآن كما كنت أراك كل أمسية مع كل غروب ..
اني أحس التعب المخمور في وقفتنا .. نهوي الى الرمل .. الملم بأصابعي
مساكب الشمس عن جبينك أعد خطوطه ، تطفح عينك بالحر ، أشربها
من أهدابك ، شفتاي برك صيف عطشى ، يا لفيتك المنتعش ، تموت
الشمس نستسلم للظلمة ، لآلاف النجوم تنهل من ضياء مساتك ، لآلاف

النجوم التي ترشقها في عتمة شعري .. أزهر بها على الصبايا كل الصبايا ..
 يطلع القمر .. ينوس بين غيمتين حينما تعزف على قيثارتك .. ما كان
 أزكى أناملك ، ما كان أبدع ألحانك التي لا يشبهها لحن في المدينة ..
 ألحانك الهوج المستسلمة المشبعة بثقافة إنسانية كاملة ، ألحانك ذات النكهة
 التي لا تشبهها نكهة ، ألحانك العجيبة كأصبعك المادمة العجيبة . كان
 يخيل إلى أنك تعزف بها وحدها ، تبده ، تختلف عن الآخرين بها
 وحدها .. يا خالد .. حينما أذكر ، يدهشني اننا استطعنا أن نفرق ..
 لم يكن بيننا حجاب .. كنا شيئاً واحداً ، كنا مستقسم مصيراً واحداً ..
 نتحدث المدينة وأموال أبي ونزوح .. لماذا طردتني ؟ أنا جمرة الشتاء
 الحزينة لماذا شتتني ؟ الذكرى تسحقني .. بعد سنوات ثلاث ما زلت
 أتمزق شوقاً الى لقاك وخوفاً من لقاك .. ازداد التصاقاً بأعمدة الشرفة
 وأنا أنتظرك .. خائفة ضائعة كوثي يرقب حكم آفته الغامضة التي لم يفهمها
 أبداً .. وأنا يا صديقي قد اقتنعت بأنني لم أفهمك أبداً إلا بعد فوات
 الألوان .. اقتنعت بأنني لم أفهمك يوم حملت إليك هديتي لعيد ميلادك ،
 وأنا أقول لك : أتمنى أن تحتفل بعيدك في العام المقبل في بيتنا . وجهك
 ظل وديعاً حنوناً حتى فتحت العلبة : هديتي إليك ، وانبثق منها وميض
 ماسي وهاج .. وأخرجت منها زرين ماسين لقميص السهرة كانا من
 أتمن ما نحوي المدينة .. لكنك لم تشكرني .. لم تبسم في وجهي .. صمت
 ولبتك ظلت صامتاً .. ثم انفجرت فجأة وأنت تتحبب وألقيت بهديتي
 الماسية الى أرض كوخك المتسخة .. ثم طردتني من حياتك بوحشية ..
 ما زلت أسمع صيحاتك « أينما الجمقاء .. اذهبي ولا تعودي أبداً أينما
 المخادعة .. هل تجرؤين على الزواج بي . اذهبي » ..

ومضيت .. وتوقعت أن تقول شيئاً .. أن تلتق بي .. أن تعتذر ..
 أن توضح الأشياء . وانتظرت طويلاً وصمت طويلاً لكنك لم تفعل ..
 وحلت أشواك الكبرياء ولم ادن منك .. ذهبت ببساطة لأنم دراسي في

جامعات لندن .. لم أقل لك ان أبي لم يكن ليرفض لي طلباً؟ ومضيت.. ورغم الأشياء كلها ، بين جفني خباتك كأسمى مقدساتي .. حملت صورتك وطفقت بها العالم، فما مزقتها ربيع لفحتني عند جسر واترلو ، وما طمستها فتف ثلج في برج إيفل ، وما شوحتها شفتا شاب أشقر في فيينا ، وما عبثت بمعالمها ليالي الدراسة والتعب .. وظللت أنت أنت .. تضحك .. تجاهه العالم بأصبعك السادسة . وظللت تعذبني لغزاً مبهماً .. وظللت أبداً أتساءل .. لماذا تخلصت مني فجأة وهذه القسوة والغموض ، وأنا التي ولدت في صمت الغابة ضبابية متكبرة صامتة ، لماذا ألقيت بالزرين الماسيين الى الزاوية المظلمة ؟

الليل يلسغي بصقيعه .. سوف أدخل الى الناس الذين جاؤوا لتحتي.. لا بأس .. سألقي فطرة أخيرة .. يا الله .. ها قد جئت اني أعرفك . ها قد جئت مضفوراً بالليل والحريف ، اني أعرف مشيتك وقامتك .. اني أعرفك ، لو اني أبكي .. لو اني أغني .. لو انك تحملني وتذهب بي الى عوالم وأزمان حقيقة البعد .. ها قد وصلت الى الباب الضخم ، يخيل إلي انك تحنو هامتك لتدخل .. وأنت أيضاً صرت تحنو رأسك للقصر يا خالد ؟ الباب يبتلعك ، لكنني ما زلت معك .. أحس انك تدوس البساط الآن بقدميك .. أحس انك تتسلق الدرج الواسع .. تدخل الى القاعة المليئة بالناس .. يتحلقون حولك ، غانية تصافحك ، عوانس يلاحقنك .. أحس انك تتلفت حولك مستطعلاً .. عيناك تبحثان عني .. لست في القاعة ، لا تبحث .. اني هنا أمضغ أيامي في قلعة السأم .. اني هنا جمره الشتاء الحزينة ، ويداك تتحسان الجداول الصلدة الطحلية.. ماذا تريد أيها الغريب من جديد ؟ أي يؤس تحمله يداك ؟ أي عذاب تخفيه اصبعك السادسة ؟ أي مصير دام ؟ ألا ترى .. انني متعبة .. متعبة .. ثلاثة أعوام وأنا أحلك بين جفني .. ثلاثة أعوام والاهانة تأكل من أعصابي ودمي، ويظل حيي أقوى من الاهانة .. يا أنت .. يا أصعباً

سادسة عجيبة تتحدى المدينة .. أنت ما لم أستطع أن أكونه .. مرة ثانية
تطل الخادمة .. أعرف أنها جاءت لتناديني .. سوف أدخل بعد دقائق ..
قولي لهم أن يبدأوا .. تمضي وأعود وحيدة من جديد . وأطل على المدينة
المستسلمة .. أراها خلف ظلال أصابع يدك الست ما زالت تعرف الغبار
والمطر . كفك العجيبة كم لاحقتني .. ما هذه الألحان التي بدأت تنسكب
من الداخل مع الدفء المشبوب .. انك تعزف .. لا شك في انك تعزف ..
خيوط ألحانك الشاحبة تقيديني .. تشدني الى الداخل .. الى حيث الناس
في ثيابهم الثمينة ومقاعدنا الفخمة .. لا أحد يلحظ دخولي .. كلهم
ينصب لعزفك .. ها أنت جالس الى البيانو وقد وجهت ظهرك الى الباب
الذي دخلت منه .. كفك .. ظهرك رقبته .. اني أعرفك .. رأسك
البيضوي المحبب . هذا مقعد اهوي اليه .. أغض عيني .. أحب أن
أعود الى دنيا ألحانك أمضغها ، أمتصها ، أحيا بها ، أسجد لها ..
استسلم للنغم وأنصت .. ما هذا اللحن الماجن الملون الأجوف .. لا يمكن
أية اصبع سادسة أن تعزف هكذا يا خالد .. انهم يصفقون . تعود الى
العزف .. لم يعد في ألحانك أي مضمون إنساني .. أية رعدة وجدانية
صادقة .. أنغامك أشبه بوجه عجوز صديء ينوء بالاصباغ والألوان
السائحة .. أصبعك السادسة لا يمكن أن تعزف هكذا .. لا يمكن أن
تبذل نفسها لتصفيق الهاتفين .. اني أعرفها جيداً .. اني أحبها .. زران
ماسيان يلتزمان مع حركات يدك .. سبق أن أهديتها لك يوم طردتني
وقدفت بها الى الوحل .. ماذا حدث ؟ أي غموض يحوطك .. أي سر
تخفي في حناياك .. لحنك يفرق من جديد في سطحية مؤسفة .. يصفقون
لك ، أكاد أبكي أبها الفنان الميت ..

يا خالد .. يا أنت .. يا حطام أنت .. ماذا صنعت بي وبفلسك ؟
وتوقف عن العزف تلتفت ، يلتفون حولك مهتئين .. أصبحت بالعمى
عظيماً في سوقهم .. ماذا دفعت يا ترى ؟ يلحظون وجودي .. يطبقون

علي مهنتين مستقبليين .. كيف أنت ؟ هل ستعودين الى لندن لتحصيل
الدكتوراه ؟ هل أحسست بالشوق إلينا .. هل .. هل ؟

أستحيل آلة رائعة من آلات المدينة .. أصفاح .. أبشيم .. أنحنى .
يخفني الغثيان .. أضحك .. أمقتكم .. أشكركم .. تنجه أنت نحوي .
يا لقامتك المحبة .. اني أرعد .. قلعة السأم تتهاوى .. أنا جمرة الشتاء
الحزينة .. اني أخافك أيها الغريب .. ماذا تبغي مني عذابي ؟ أنفاسك
صارت قريبة .. وهجها يدفني .. يتمسح برجعي .. تمتد يدك لتصافحني
يدك الحبيبة كم أنا بشوق إليها .. كم أود أن أسكب نفسي في قبضتها ..
يدك الغالية أمد يدي لأصافحها .. ما هذا ؟ أين .. أين الاصبع المتمردة ؟
أين اصبعك السادسة ؟ أين اصبع الالفه واللامبالاة .. تجمد يدي . أعين
الضيوف مسلطة علينا .. تتمتع بالمشهد البائس .. أنا من جديد آلة بلهاء
من آلات المدينة . أصفحك وأنا أبتلع دموعي .. يا أنت .. يا حطام
أنت .. لماذا صرت هجيناً ؟ لماذا قطعت اصبعك السادسة ؟ هل صرت
تخشى نظراتهم وفضولهم ؟ هل أصبحت تسعى لارضائهم .. ما أقبح
الزورين الماسيين ، هل استعصت بهما عن اصبعك السادسة ؟ كان علي أن
أدرك ذلك منذ سمعتك تعزف .. وأعود أستجدي من وجهك كبرياءه
وعزته .. لا أجد شيئاً .. الى الشرفة أنسحب .. لا أحد يهمني .. أنا
جمرة الشتاء الحزينة . من جديد أزحف الى قلعة السأم .. من جديد
تعلو الجدران الصاعدة .. أسند نخدي الى العمود الرخامي .. أرعف مع
سماء المدينة الضباب والمطر والدم .. ارعف أيامي وذكريك .. مرة قسات
وجهك صلبتها فوق قسات وجهي .. أذكر ابتساماتك فأبتسم .. من جديد
أقلع مع الصمت الى موانئ لم تلونها ضحكة رجل كاذب .. فأدم لم
يولد بعد .. وحواء لن تسجد لرخاوة الطين .. وقع خطاك خلفي ..
التفت إليك .. يؤلمني أن أراك .. ماذا تتوقع مني ؟ تقرب مني أكثر ..
أزداد التصاقاً بالعمود .. ماذا تريد ؟ تخاطبي ، أسمع صوتك يتوسل .

ماذا أريد ؟ تعرفين يا سها ماذا أردت دائماً .. أنت .. أهتف بك :
 أنا ؟ ما هذه الأحجيات .. هل نسيت انك كنت قد طردتني ؟
 انك تتحدث .. تتحدث بشراهة كما تأكل العجائر .. لم أعد أسمع ما
 تقول .. سحابة جراد تتناثر من فلك .. من تزلفك وتوددك .. ماذا تريد
 أيها الغريب ؟ اني أفهمك .. اني آسف لك .. انسي أغلق أبوابي من
 دونك .. ألا تفهم ؟ أحبتك اصعباً سادسة عجيبه - شيئاً حقيقياً جريئاً
 يصفع المدينة بتعاليه ولا مبالاته .. ولكنك حنوت هامتك .. لكنك في
 هيكل التخاذل والرياء قطعت اصبعك .. حملت جثة شخصيتك الحقيقية
 جواز مرور الى أسواق الرياء .. لكنك أنت لم تعد أنت .. أضحي
 كيشاً من القطيع .. كيشاً كبيراً ثميناً ، لكنك كالبشر ، كملابن التافهين
 المستسلمين الجبناء .. ماذا أقول لك ؟ انك لم تفهمني .. لم تفهمني أبداً ..
 من جديد أصحو على صوتك وأنت تقول : ماذا ستفعلن ؟ لقد تنازلت
 عن كبريائي وكرامتي كي أساوئك مالا ومكانة .. دعينا نتزوج .
 - لقد خسرت كي تكسبي .. وقتلت في نفسك خالداً الذي أحبت ..
 ما كنت لأحب لك هذا المصير .
 تجيبي معتوهاً : ولكنك أنت التي دفعتني اليه ..
 - أنا ؟ أنا دفعتك اليه ؟
 تصرخ حاقداً : أجل .. أنت .. أنت أثبت لي انك واحدة من القطيع ..
 فحولت نفسي لأجلك الى كيش جديد .. حينما أهديتني الزرين الماسين
 آمنت بأن كل ما قلناه عن التفاهم والمشاركة كان زيفاً منقأً ..
 - لماذا ؟ اني لا أفهمك ..
 - لأنك حين أعطيتني هديتك الماسية لم تلحظي انني كنت أرتعد برداً ،
 ولم أكن أملك قيصاً للسهرة ، حتى ولا رداء صوفياً .. وهكذا كان علي
 أن أكون شيئاً يناسبك فعلاً : يشابهك ..
 تصفني كلماتك ، تمزقني .. انك تهمس : لن تري وجهي بعد

اليوم .. لقد حطم كل منا صاحبه .. تخرج دون أن تنتظر جوابي ..
 إذا فقد أسهمت أنا أيضاً في قتلك ؟ يا لأعماني المظلمة المدللة النافهة ! اني
 أحقد على نفسي كما أحقد عليك .. ان خطيئتي لا تبرر خطيئتك .. لماذا
 داويت الجرح بالجرح .. لماذا داويت التفاهة بالضعف ؟ الى ضيوفي أعود..
 لقد اختفيت من البهو .. لا فائدة من البحث عنك .. أي ارتباط لي
 بك ما دام صداً نفسي لم يخالط صداً نفسك .. لقد مضيت ووجدت الحل
 الوحيد الذي تبقى لنا ... أعود الى ضيوفي .. أنا آلة بلهاء من آلات
 المدينة .. دمية أضحك وألمو وأفكر بك ، يا صنو ضعفي .. سقطت
 أقنعتنا ولم يعد بإمكاننا إلا أن نقف في الشمس كميذان القصب .. عارفين
 إلا من حقيقتنا .. لقد سقطت أقنعتنا وأطل القصر من عيني قلداً بتكبره
 ولا مبالاه ، وأطل الكوخ من عينيك متزلفاً هجيناً ، فلنهرب بخطايانا ..
 كل إنسان في المدينة قد خط خط حرفاً في سطر تعاستنا .. اننا نحن لم نعد
 نحن .. هزمتنا .. هزمتنا المدينة يا خالد .. جعلتنا نتخلى عن أصلتنا .
 عن قدرتنا على أن نحب .. على أن نكون شيئاً متميزاً .. اصبعاً سادسة..
 فلنضاحك القتلة ولترعف الدم والمطر مع سماء الخريف .. انها الثالثة بعد
 منتصف الليل .. تعبت الدمى .. انهم يرنحون ويتدافعون قتلوا براءتنا
 يا خالد في لحظة ضعفنا .. فاشترت لك الماس بسدل الخبز .. وقطعت
 اصبعك لتبتاعني بها .. لانهم يودعون ويمضون .. يمضون مع بقايا الطعام
 في أفواههم حكايًا وجوهنا السقيمة .. يمضون .. يمضون جميعاً .. وحيدة
 مع أبي .. يعانقني وهو يهتف بحماسة لك ثروتي .. وأموالي كلها .. ماذا
 تريدن أيضاً ؟

أمواله ؟ لماذا ؟ كي.. أهدي كل إنسان يحمل اصبعاً سادسة زراً ماسياً ؟
 كي أقتل الناس الطيبين ؟

— أبي .. أريد أن أعود الى لندن كي أتم دراستي ..
 — ماذا ؟ أما كنت قد عزمت على البقاء ؟

- أربي .. يجب أن أرحل غداً .. بعد غد .. أنوسل اليك .. يجب
أن أمضي ..
يجبني كعادته : كما تشائين يا حبيبي ، لم أرفض لك طلباً طوال
حياتي ، اسعدي الآن ونامي ..
- سألق بك ..

يخرج . أنا وحيدة في القاعة أمام البيانو .. تسقط نظراتي على سوار
الماسي .. على ماساته التي تلمع بتهكم مفعج .. أغرق في جمود الماس ..
أسقط على قطع الماس .. أسقط على أحد جبال الماس المهجورة .. قعمه
اللاعاءة مدببة وحادة تنغرس في لحمي .. لحن يضع في كهوف بعيدة ..
أغوص في صقيع السوار .. انتشل نفسي بصعوبة .. لا شيء .. لا أنت ..
لا كفك العجيبة .. لا شيء سوى صقيع الماس .

جبال الماس تنهار ، تتكاثف ، تتكاثف . قطعه تندس في فمي وفي
أذني . تقتلع عيني وتغرس في موضعها ماستين .. أنا دمية يشرنقها الماس ،
تركض وراءك في دهاليز مشوهة من أجل لقاء تصلي كي لا يتم . أنا
دمية الماس .. لا يهمني بعد اليوم أية غرفة ازين ، أبة مائدة ، لأن
جحيمي الأبدي هو انني عرفت نفسي ، وعرفتك .

الرجل ذو الهاتفين

كطلقة نارية طائشة أهم في الشوارع، وبيروت عجينة صخب لامبالية،
وأنت يا غريب أبحث عنك لأنني اخترت لك أن تكون جلادي .

في بناء ما من هذه الأبنية المعلقة تجلس، وراء نافذة ينبت منها الضجيج
الذي يضمك أبداً في دوامته .

يمرون بي ، وجوه كالجحام المهترئة سوف أسفح لها كنوزي ،
وقسماتي جامدة مشدودة كزند تمثال روماني .. سوف أرقص طويلاً
وأغرس كعب حداثي اللقيق كالخنجر في قرميد ذلك القصر الذي عرفت
جدرانته معنى الفاجعة ، معنى الحرب بين اللحم والأعصاب في جسد
امرأة ...

« أنها قديسة ، قديسة .. »

هكذا كان يقول لها زوجي وهما يغلقان الباب ، والرجل المشلول في
الأعلى .. لم يكن مشلولاً يوم كان يحملني ، يرفع طفولتي على كتفيه
كي أزرع في السقف حقلاً من شهب مراوغة الأحقها في زوايا البيت
وهي تهرب مني ، لا ، لم يكن مشلولاً يومئذ ولم أكن قديسة ..

وكانت هي سلية الدم الأزرق تحاول أن تعلمني أسماء أجدادي ،
تضربني كي أحفظ نصرت باشا وعزت باشا .. و .. كنت أكرههم ،
أخيلهم قراصنة مقطعي الآذان ، ولهم أنياب طويلة تنحدر من أفواههم
مدبية ، وأنا أهذي : « أبي .. لماذا تزوجتها .. لماذا هي أمي ؟ » ..

كطلفة نارية طائشة ما زلت أهم في الشوارع ، وبيروت عند الغروب
عجربة تصارع السأم بغناء جامع الضجيج ، وأنا نبع من ضجيج أحسني
أهدر مع العابرين ، أنسكب في سيولهم التي تمتاز الطريق ، أنفجر في
أبواق السيارات التزقة صراخاً ممزقاً مبوحاً .. أنحت عن مكتبك يا غريب
لأنني اخترت لك أن تكون جلادي ..

من بعيد ، في مدينتي التي ما زالت تلف خطاباها بالحجاب والكفن
كنت أقرأ لك .. وكنت أحب تلك الحروف الراحلة كأهداب طفل
حيناً ، وكأهداب خاطئة أحياناً . تلك السطور المجرحة أبداً بالعمق ،
بالفهم الكبير لمعنى الألم والرعب الذي ينبع من الوسادة ، يتغلذى من
أقبية الصمت حيث شدت أنوثة امرأة الى الأوتاد لتجلد ، والرجل المشلول
في الأعلى ، في الغرفة المشمسة على السطح يقرأ الأدعية لإله النافذة
المشمسة ! وعبرة قديسة بلصقونها على كل جرح ، على الباب الذي
يفلقانه وراءهما .. أمي وزوجي !

« قديسة .. قديسة » ..

وكنت صغيرة أعشاب مستسلمة للتيار ، أتلقى نحب وقع الكلمة ،
أنهار . أضعف من أن أتمرد . أعزي نفسي بأنني قديسة لأنني أجن من أن
أكون إنسانة .

وكنت أعرف ان الدم الأزرق يتعري كل ليلة على فراشي ، يستحيل
أحمر أخضر أصفر نهراً من قاذورات .. وكنت أنا أغب النهر كي لا
يسبح في الشارع والحبي ويسقط قرميد قصرنا فريسة لأحاديث سيدات
الحبي .. وكنت أدعي أنني أصمت من أجل المشلول في الأعلى ، من أجل
المرأة الأخرى التي هي أمي ، لكنني حيناً كنت أدفن دموعي في الوسادة
لأدعي أنني قديسة ، كانت الوسادة تبصق دموعي اثمترأزاً لأنها تدرك
جيداً أنني لا شيء سوى صغيرة أعشاب بحرية لينة .. بلا نبض .. بلا
صلابة ..

« قديسة » .. وتفهقه امرأة ما وترعيني الضحكة الوحشية . أنلفت .
 لا أحد في الشارع الجاني نصف المظلم سواي . أنا قديسة أيتها الجدران
 الصفر المهترئة . قديسة من نوع خاص . غداً حيناً يلصقون على خدك
 الشاحب إعلانات جديدة هي صوري ، وترين الوجه الناقم كوجه نمرة
 أكل الكلاب أولادها ، وترين الساق عارية مسترخية تفهمين كيف
 أصبحت الآن قديسة . ولن تري على الجسد العاري أي جرح أو
 خدش ، ولن تقرأ كلمة قديسة ولكن حيناً تسقط المدينة في أحضان
 الشتاء ويفضل المطر الصورة يأكل منها ، وتزحف على وجهها
 أضواء شارعك الباهتة ، ستعرفين معنى أن أكون قديسة لأنني استطعت
 أخيراً أن أنمرد وأن أظعن جثتي بمنجى ضعفي . (وسأكون وقتها على
 مسرح ما أغني للجاحم المهترئة . وأرقص . أغرس كعب حدائي الرفيع
 في القرميد الأحمر لأدمره . أنقلب نشوى بين أذرع الموسيقى الماجنة) .

أريد ، أريد أن أمثلَ بئلي ، أن أصلب جسدي عارياً فوق القرميد
 الأحمر ، وأن أتركه للسكران يقطعون الأيدي والأرجل ويتسابقون للملء
 أقداحهم من الدم ، وسوف تبكي أمي كلما قال لها واحد منهم ان دمي
 ليس أزرق وانه أحمر ، كالحطيطه ، كدمها !

كطلفة نارية طائشة ما زلت أهيمن في الشوارع . لم أعد أعرف
 أين أنا .

يبدو أن علي أن أسأل إنساناً ما كي يرشدني إليك . لقد ضعت
 زمناً طويلاً . بل انني أردت أن أضيع . كي تزداد نار حقدتي تأججاً .
 كي تلتقط عدسات مصوريك ثورة الجثث في عيني .

للمرة الأولى أريد شيئاً . وللمرة الأولى أحس أنني أكبر من قديسة
 لأنني صرت شيئاً يقرر مصيره . مصير امرأة ميتة تسمى .

سوف تجد أكثر من عنوان مثير للحكاية التي سأقصها عليك .. وسليمة

ملوك العناتين في سوق الجوارى ! .. لا .. إنه كثير الخلفة كالأساتذة الذين كانوا يجيئون إليّ في الدار .. ليكن : « واردة الملايين تهدي نفسها للملايين » .. لا لن يعجبك هذا أيضاً .. على أية حال سوف تجد العنوان بنفسك وسأحدثك بكل شيء . لقد اخترتك لتكون جلادي وأنا واثقة انني أحسنت الاختيار ، رغم انها المرة الأولى التي أمارس فيها تجربة الانتقاء .. حتى زوجي لم أختره أنا .. كان الرجل الوحيد الذي يلائمني في المدينة .. انه مثلي ، وارث ، وأزرق الدم ، هكذا قالت أمي منذ عام، وكان ذلك يكفي . لقد أحسنت الاختيار لنفسها !

بوق سيارة . ألتفت . لوحة الرقم حمراء . أستوقفها . على المقعد ارمي . أخطابه بصوت لم أعده في نفسي . صوت يشبه ضحكة المرأة في الشارع الجانبي حينما لم يكن فيه سواي : هل تعرف مكتب مجلة « الشباب » .. يهز برأسه . ينبع بوقه في أحد المنحنيات . يدور بي من جديد في شوارع طويلة مضيئة .

انتهت أسطورة الغروب ، وها قد بدأ الليل يهب في الدروب كريح قاسية توقف فراشات الأضواء . غداً ، في زاوية ما تضيء لوحة تحمل اسمي ، تغمز للعابرين أن تعالوا .. هنالك جسد ولد يدين وعينين وساقين جميلتين ولكن بلا كرامة . حزمة أعشاب أحسن لفها . اني أكره نفسي .

يقف السائق . أهبط مسرعة . يصرخ بي : أين الأجرة يا .. ؟ وكانت عيناه تنطلقان بآهام صريح، لكنني نسيت فعلاً . أقرر ذلك ببلادة كأنها إنسانة أخرى تلك التي أنحدث عنها . لا أشعر بأي خجل أو حرج . لقد مت حقاً . هذا رائع . يجب أن أكون قد انتهيت كي أسفح الجسد على الموائد مسترخياً ابلة التعبير . وإذا ما اكتشفت ذات ليلة ان عضواً من أعضائي لم يمت وانه أنقبض استمزازاً لما لسمته شفتنا ثمل

فسوف .. آه .. لماذا أفكر هكذا .. انني ميتة .. لقد انتهى كل شيء .
لم يبق إلا ان تنهار جدران القصر وتتبدى الغرف للجميع بكل ما فيها
حقيرة قلدة مربعة ، فتأثسي مجلتك وتنسل تحت القصر العاري كبساط
الريح ، ثم تحمله وتدور به من دار الى دار ليروا الدم الأزرق في وجه
المرأة الأخرى ينتحب .. يتبحر ..

المصعد أمامي . لماذا لا يسمونه مهبطاً ؟ لم هذا التفاؤل كله ؟ مصعداً
وأضحك وأنا أغلق بابه . هلمي النمرة التي نهشت الكلاب أولادها تخيفني
حينما تضحك . يتوقف . أخرج . باب المكتب الفخم عريض ومفتوح .
أدخل . لا بد ان هذي الحساء سكرتيرتك . تتأملني بإمعان وأنا أقول :
أريد أن أرى الأستاذ طارق لأمر هام .

— من أقول له ؟

— قولي له .. لا أحد .. أعني .. انه لا يعرفني ..

تخرجني قليلاً من نظراتها المتفرسة . تدخل الى غرفتك . تغلق الباب
وراءها .. أحاول أن أسترق النظر لأراك فأفشل . أنفيلك كما توحى لي
شهرتك الكبيرة عجوزاً في الستين .

سوف تتأملني طويلاً من وراء نظاراتك السمكية حينما أدخل ، وسوف
تستمع إليّ باهتمام وأنا أتحدث طوال ساعات ، ولن تزيع نظراتك عني
إلا لتبتلع بعض أقراص الدواء او لتخرج مندبك وتسعل فيه . هذه
الشيخوخة أجها لأنها شيء ناضج طالما وجدت في كلماتها الناضجة
عزاء لي .

تخرج إليّ ويصوتها الناعم تقول : تفضلي وانتظري ..
وأجلس ، وأنا أنحرق لرؤيتك .

سوف أخبرك بكل شيء وأخضك بالخبر الذي سيهز مدينتي .
سأقول لك ببساطة انني أريد أن تكتب أنت قصتي . أنت وحدك قادر

عل أن تفهمها ، وتفهم اني أريد أن أهين التفاحة الزرقاء بأن أنمط بها
الى درك التفاحة الحمراء .

وستكون آخر رجل أضافه ، وأنا أحل اسمي : صفاء . وغداً أجد
لي اسماً آخر وثوباً آخر ومساحيق كثيرة لن تعرفني خلالها .

جرس يقرع . تقول لي : «تفضلي» كم هي جميلة هذه السكرتيرة .
أتقدم ، أفتح بابك أيها الإله بلا خشوع . اني سعيدة لأنني فقدت
ردود الفعل الطبيعية ازاء الأشياء التي أفقدتها . بسرعة أدخل وأغلقه
ورائي ، كأنني أخشى أن تتسرب منه الى الخارج ، وأجد نفسي من
جليد وحيدة مع ضحكة النمرة . وأخيراً أهوي بنظراتي الى المنضدة ،
والى ما وراء المنضدة ، اليك .. أجدد !

تنهض لترحب بي فيقرع الهاتف ولحسن حظي تلتفت اليه . أقف
لأناملك . أهذا هو أنت ؟ هل يمكن أن يكون هذا هو أنت ؟ أين
الرجل العجوز ؟ ماذا أقول وهذه القامة منتصبه كمنارة ، وهاتان العينان
تشعان دفئاً ونشاطاً وضياء كفجر ربيعي ، وهذه الرقبة ، لم تذل انتصابتها
ربطة عتي ، فظلت بدائية ترتعش عروقها مع نبضات صوتك القوية التي
تسكبها في الهاتف ..

صوتك ، عميق ومرح كمدافن الكنوز .. أين الرجل العجوز؟ وهذا
الصدر مشلود متين وهدي الشعيرات البيض في القودين تهدهدان مخبئها
كل طفولة .. طفولتي ماتت .. لماذا أرتعد ؟

أي شيء فيك يثير حنيني الى لذة بكاء ، دخاني أسفحه أمامك ..
أبذل به الدراعين القويتين اللتين بدتا من التميمص ذي الأكمام القصيرة ..
وأشمر انني عاجزة عن أن أقول شيئاً ..

إنك تتحدث وتهز رأسك في ضجر بينما نظراتك تنقض ، تسلطها عل
وجهي فتخرجني كالأضواء الكشافة .. وأحاول أن أتذكر كيف أبدو في

المرأة لأعرف ماذا ترى . وأحس بأن نظراتك أصابع عجيبة تتحسس وجهي ورقبتي وتربت على شعري بخنان ثم تحملني من ملهى ليلى أمثل فيه بجفتي الى أمسية ربيعية تفوح من ترابها رائحة الشهوة وزهر الليمون ورائحة رجولتك .

يبدو من إيماءات وجهك ان حديثك الماتفي قارب على الانتهاء . آه ماذا أقول لك . تراني أجرو على أن أحدثك بما فعلت البارحة ؟ تراني أجرو على أن استعيد ملامح الوجه الجامد المشلول في الأعلى ؟ الفجعية الزرقاء في القلب الذي قتل ؟ وهذا الختان في وجهك ، هذا الختان الذي تستحقه طالبة صغيرة مهذبة ، تراني أراه يتحول الى نظرة جدلية خطيرة ؟

جرس آخر يقرع قبل أن تنتهي مكالمتك الأولى . هاتف آخر الى جانب الأول . ترفع الساعة الثانية وتضعها على أذنك . أيها الرجل ذو الماتفين : لم أكن أدري انك رائع هكذا . لم أكن أدري ان الحريف الحلو يقطن في القود الأشيب وأن الرجولة لا تثمر إلا في ثنايا الوجه المتعب .. وجه رجل ذي ماتفين !

ينتهي حديث الماتفين . الصوت العميق الغامض كمدافن الكنوز يوجه الكلام لي . يقول بطلاقة وألفة رائعة : « أهلاً بك .. أجل ، لا أعرفك ولكنني أستطيع أن أخن من أنت » ..

تطوقني كلماتك . لا أجيب . تلحظ ارتباكى . تقول بمهارة : واعتقد أنك طالبة جامعية .. هذا الوجه النظيف .. هذه البراعة في الملامح والبساطة في الثياب .. وطالبة مجدة أيضاً .. »

ووجدتني أضحك . ولم تضحك النمرة التي أكلت الكلاب أولادها . ورغم ذلك ضحكت بينا تابعت : « وجميلة جداً .. أجمل مما ينبغي لرجل مثلي أن يرى » ..

أحد الهاتفين يقرع . بمقد أممس : « أكثر مما ينبغي لرجل ذي هاتفين »
 أنك تحدث : « أجل ! الملزمة الأولى وقمتها . قلت لك يبحث عن
 الكليشة الأخرى .. » ..

لن أنظر اليك . هذه الانحاء التي تتفجر منك تحرك في الجنة أحراناً
 دفينه وصدى نجيب منقطع في أقبية لا شمس فيها . سوف أقول لك حالما
 تنتهي من المخاطرة الهاتفية ..

البارحة ، لما أغلقا الباب وراءهما بعد أن قالوا اني قدسية ركضت الى
 ذلك المشلول في الغرفة العلوية وكان ما يزال يسبح إلهه ، وانقضضت
 عليه ولا أدري ان كنت قد صرخت في وجهه ، ولكنني أمرته بأن يكف
 عن مناجاة إلهه وان ينهض ويأخذ زوجته من فراشي الى غرفتها او
 يموت .

ولم يقل شيئاً . لا أدري ان كان قد سمعني أم لا . ولكنني اليوم
 باكراً لما صعدت كمادتي لأفتح له النوافذ كسي يبدأ من جديد صلاته
 وجدته متحجراً وصامتاً كمادته ، لكن أهدا به لم تكن لترتعش ، وكانت
 عيناه زرقاوين ، زرقاوين حتى لكان السم الأزرق سرى فيها وقتله .

لماذا لا تنتهي سريعاً لأقول لك كل شيء وأستريح !
 الهاتف الثاني يقرع . تحدث في الساعتين معاً .. وأنا لست طالبة
 مهلبة . انني امرأة بائسة . نظرائك عادت تحاصرني كالأضواء الكشافة .
 أغتبط وأنت تغلق الهاتفين فجأة . تهتف بحرارة وأنت تنهض بحيوية انسان
 يستطيع أن يحملني بين ذراعيه ويسير بي على الرمال ليلة كاملة : « يبدو
 ان الحديث هنا مستحيل .. وأنا لم أتناول غدائي بعد . هل تقبلين بأن
 نتناول وجبة لا اسم لها معاً ؟ » .. أصمت .. تستمر أنت : « حيث
 أسألك عن اسمك على الأقل ثم أعود الى مكتبي » .. لا أجيب !

كان هنالك إحساس عيقت بدأ يسيطر على حواسي . هنالك شيء
 ينض ، يتحرك ، يتململ ، يش .. كانت هنالك امرأة ممزقة في قبر ما

تحاول ان ترفع حجر القبر عن صدرها بعد ان كادت تدفن نفسها حية .
لم تنتظر جوابي . لعلك اعتدت على طاعة من حولك لك . تفتح لي
الباب . نخرج معا .

« تجدينني في مكان سهرتي المعتاد » تهز السكرتيرة الحسنة رأسها ،
وتأملني من جديد كما تنظر المرأة الى المرأة . للذيلة هي نظرات حسد
النساء الأخريات .

أزداد اقتراباً منك ونحن نخرج . جرس أحد هاتفك يقرع من الداخل
ولا أدري لماذا أرى شريطي هاتف طويلين يخرجان من أسفل باب مكتب
كالأفاعي الرقطاء ويزحفان نحو قدميك ليلتف كل منهما على إحدى ساقيك
بأحكام حتى القدم ويجلبانك نحو الوراء ، ولكنك ما زلت الى جانبي .
وحيدان في المصعد . أرتجف كمراقة كأني لست ميتة ! وجودك
للبد وممرق كعالم مباحج لا تهدأ . يتوقف المصعد .. يغادره .. أحسني
صغيرة وأنا أرفع رأسي الى وجهك والى قائمك الطويلة المنتصبة الى جانبي .
في سيارتك الكبيرة أجلس قريباً من أنفاسك . يبروت ، العجيرة
التي تصارع السام تضيء وتنطفئ .. دار ضخمة فخمة . دار حقيرة الى
جانباها . تتأوت الأصوات والأضواء ونحن نصعد في طريق جانبي . الضوضاء
المتخففة في جنون المدينة الملوثة تموت على عتبة المكان الذي توقفنا أمامه .
أرفع رأسي وأقرأ : « شاليه سويس » نهبط . يرحب بك رجل لا
يحمي أن أنظر الى وجهه . يبدو انهم يعرفونك جيداً هنا .

يقودنا الى منضدة صغيرة . استرخي في مقعدي . ربح البحر تهب
ومعها أصدااء غناء ملحين يبحثون عن المجهول . بائسة . اني امرأة بلا
مجهول .. بلا انتظار .. جثة جاءت تصلب نفسها ، تقطع الأيدي والأرجل
وترشها مع الليل والحلالت ..

ترى لمن كان الرجل المشلول في الأعلى يرفع صلواته ؟ أحسها في
ضمير الليل تبحث متلاحقة خائفة عن الإله الذي رفعت اليه ، وأحسها

تمر أحياناً أمام عيني خائبة كالفياق الممزومة ..
 فلأبدأ .. فلأحدثك الآن .. لماذا لا أجرؤ ؟ الأموات لا يرهبون
 شيئاً . لماذا أنا خائفة ؟ عطشى . ابريق الماء أمامي . أمد يدي لأمسك
 بالقبضة . في الوقت نفسه تمتد يدك . تسقط يدي في حصار يدك .
 تلمسها كفك الكبيرة التي تستطيع أن تغطي وجهي كله . رعشة شهاب
 يحترق تستمر فجأة في جسدي كله . تشعل لفاة .
 اللخان يتسرب من شفتيك غموراً مترعاً . اقترّب قليلاً حتى تغمر
 غيمة اللخان وجهي ثم استنشقتها ، امتصها بشراة ، أتلوق فيها طعم
 شفتيك ! التلج في قم شاحبة نائية بدأ يلوب . أحس انسكابه الوخاز
 في هشيمي موقظاً ممزقاً كوداع الريح تعصف من جديد في البيلدر ، لكن
 جث شتول اقتلعتها أقدام دخيلة تغطي كل شيء ..

ويشدني صوتك عن البيلدر ونواح الريح في القمم الشاحبة ..
 - والآن ، حدثيني عن نفسك ..

أحدثك عن نفسي ! باختصار : أمي... وزوجي ! بالتفصيل :
 جث لأقول لك انني جسد ميت مسخر للانتقام .. ولكن بقية من
 حياة ما زالت تحتضر في أعماقي تحت أكوام الرماد . وأنت أيها الغريب ،
 ترغمني على أن أشعر بأنني ما زلت أحيا .. من زمان ، كنت أقرأ لك ،
 فأسمع في القبو حفيف أنفاس انسان . عجوز . هرم ، لا فرق . أي
 انسان .. وأحيا مع حروفك لحظات مقتضبة أدرك منها ان الجمرات ما
 زالت تحتضر ..

واليوم ، أواجه الأنفاس ، فإذا بها شابة حارة كالبحار ..
 أيها الصيف الممسر ، يا غريب ، ماذا في وجهك يهزني ؟ يزيح
 أكوام الرماد عن جمراتي .. فأحيا وأحيا وألف أحيا ..
 الخادم يهرول : « سيدي ، يطلبونك على الهاتف » .
 تنهض . أتأمل القامة القارعة . أغص لأن شريطي/الهاتفين ما زالا

يشدائدك بعيداً الى دوامة من سماعات الهاتف تضيق تحتها ..
 لن أقول لنفسي أنني أحببتك . لن أقول أنني مغرمة بك . لا شيء .
 لا شيء سوى أنك رجل . رجل حقيقي يهزني لأنني ما زلت أثني وما
 زلت أحيا ..

كيف ، كيف أقول لك ما كنت قد عزمت على قوله ؟ وكيف
 أصنع ما كنت قد عزمت على صنعه ؟ كيف أوزع الجسد على الموالد
 مسترخياً أبله التعبير ما دام لم يمت !
 ما ألد أن تعود الى جانبي . صوتك العميق كمدافن الكنوز أسمعته من
 جديد : « والآن قل لي ما اسمك قبل أن يقرع الهاتف الثاني » ..
 لن أقول شيئاً . لم يعد هنالك أي مبرر لوجودي معك ، ما أبدع
 ان أكون معك .

— انا .. انا معجبة ..
 لم أكن أكذب ، ولم أكن صادقة . فلاني قد جئت لك لا لأنني معجبة
 ولكن لأنني ميتة .

— شرف كبير ان يعجب هذا الجلال الرائع بي .
 وتندفق الدماء في أعصابي فلا أحس إلا بحرارة الدم ووهجه .
 ميتة ! وأضحك .

— تطربني ضحكك أيتها الصغيرة الهاربة من الجامعة ..
 وأضحك ..

لعلها الآن يفلتان الباب . ذلك لم يعد يمتني . ذلك المشلول في الأعلى
 مات . فليكن ، مات زوجها .. والمرأة في القبر ما زالت مشدودة على
 الأوتاد حيث تجلد ، لكنها ليست أنا .. من أنا ؟ لماذا لا أكون تلك
 الصغيرة الهاربة من الجامعة ؟

— ماذا بك ؟
 أحلم .

- بماذا ؟
- بالهرب من الجامعة .
- معي ؟
- أجل ! اذا كنت تستطيع الهرب !
- أنا أهرب ! من ماذا ؟
- من الرجل ذي الهاتفين ...
- هل ضابقتك هاتفياً ؟
- هاتفكك ..

يعود الخادم مهولاً . الهاتف طبعاً . تنهض . ينقبض صدري . أحس ان الأسلاك التي كانت تلتف على ساقيك تطول وتطول وتطوي جسدي بأكمله حتى لا يبدو منك شيء ، ويفيك الباب بقعة سوداء كبيرة من الأسلاك والأصوات الهاربة من الأسلاك . بقعة من ضوءاء منظمة !

إذن ما زلت أحيا .. ماذا بعد ؟ لا شيء .. لن أكون صغيرة الأعشاب المستسلمة .. سأتركها في القصر يسبحان في الدم الأزرق يستحيل أصفر أحمر أخضر نهراً من قاذورات .

سأكون كما ظننتني يا غريب . فلأبدأ من جديد . تأخرت أيها الرجل ذو الهاتفين . أهكذا تعيش ؟ ولكن ، لماذا انتظر ! ماذا انتظر ؟ فلأهرب .. فلأهرب بينما أنت تنوس بين هاتفيك ..

أقفز عن المقعد ملسوعة . انطلق راكضة في دروب العود حيث يورق الليل والمجهول .. لم أعد امرأة بلا مجهول ..

ماذا ستقول حينما تعود وتجد مقعدي فارغاً ؟

ستقول : المعجبة الطفلة تأخرت فهرت .

وسوف تتناول طعامك بكل هدوء . لو انك تدري !

لكنك لن تدري ، لأننا إذا ما التقينا بعد أعوام ، فستجد وجهي نظيفاً كما أعجبك ، وجه طالبة هاربة من الجامعة .. ولن تدري أبداً .

هواية متعبة

وجهه أشبه بلوحة تجريدية .. شقان ضيقان ، وكتل من التواءات ،
 وخطوط هوجاء متشورة بينها ، وأنف مرمي بإهمال ، وفجوة ينبعث
 منها صوته المسيطر لكل مريض يدخل عيادته : تمتد على الأريكة ..
 أجل .. هكذا .. استرخ ، سوف تحدثني عن كل شيء .
 وكان هو يقبع وراء هذه اللوحة التجريدية والنظارة التي تمنطليها طيلة
 ساعات النهار . وكان يحس إحساساً عميقاً بالأعراض التي بدأت تتأبسه
 منذ أيام ..

يهمس لنفسه : « لا .. إنني لا أشعر بضيق في الصدر ، ولا بازدياد
 في ضربات القلب : ولا باختناق في الحلق وحاجة عميقة للبكاء .. لا ..
 لا ريب في أنني واهم » !

وقع أقدام على السلم : « لأنها هي .. أنا واثق من أنها هي .. »
 وتراقص خطوط اللوحة التجريدية في نشوة ، بينما يهمس بوقار
 وبصوت تفوح منه رائحة الأدوية : ولماذا تكون هي ؟ في البناء نفسه
 طبيبان نفسيان غيري .. وعشرات المحامين والمهنيين .. وماذا ان كانت
 هي ؟ » .

يزداد وقع الأقدام على السلم .. تراقص خطوط اللوحة التجريدية في
 نشوة ، انه يحس إحساساً مبهماً أكيداً بأنها هي .. لقد اعتاد على ان
 يقوم بتحليل كل إحساس من أحاسيسه وكل خلجة .. فإعجابه بالسيدة

سلمى مرده الى عقدة اوديب ! وخوفه من العناكب يعود الى طفولته ..
وغرامه بالفيران البيض له علاقة بشعر بنت الجيران البرصاء التي كان يلعب
معه .. و ..

لكنه هذه المرة يقف أمام حالة مستعصية . حالة عجيبة لم يواجهها
من قبل حينما كان مراهقاً يتبع فتيات المدرسة المجاورة لداره .. ولم يواجهها
يوم حلل إحساسه نحو ابنة عمه وقرر انه يجبها بناء على الفقرات آ. ب. ل.
من أعراض الثوبات الملبانية . وتزوجها بناء على هذه الحثيات ، ولم
يواجهها يوم ولد له توأمان .. فتاتان .. فحلل لنفسه أسباب ضيقه ،
وقرر انها تعود الى رواسب نفسية وراثية حلزونية متدرة ..

حالة عجيبة مستعصية هي تلك التي يواجهها اليوم !
الباب يقرع . تدخل الغرفة كضجر .. رائحتها تطرد أمامها حروفاً
عتيقة تفوح منها روائح الأدوية. ترتد اللوحة التجريدية ويهمس الكهف:
« أهلاً وسهلاً » .. ينجح الصوت العجيب : « شكراً يا دكتور » .
— كيف أنت ؟

خيل اليه ان هذا السؤال انبث من رذاته الطبي الأبيض ، من فتحة
أكمامه او ياقته ، فهو لم يكن بحاجة لأن يسألها : كيف أنت .. من
الواضح انها تفيض صحة وحيوية وتماسكاً .. بل انه لا يستطيع ان يصدق
ان هذا الوجه هو نفسه الذي واجهه منذ أشهر خجلاً ذابلاً كتنجم مطلقاً،
بينما قالت صاحبه بانكسار :

— أنا سوسن .. أنتمي الى أسرة ..
لم يسمع بقية حديثها .. كان يتأمل عينيها ... دوامتين من عويل
أخرس .. كان يتأمل خديها .. ولحنت استباحها أعرابي فج .. كان
يتأمل ملائحة وجهها أطلال أحقاد حزينة .. لم يكن بحاجة الى أن يسمع
بقية القصة .. لكن رداءه الطبي الأبيض قال لها بصوت جامد تفوح منه
رائحة الأدوية :

— مُددي على الأريكة !

واستلقى الجسد الدقيق أمامه .. وأطبق الجفنان على دوامي العويل ..
وبدأت تتحدث .. غناء عرائس البحر الباكي يشع من صوتها .. عرائس
البحر اللواتي قدن أشجع البحارة الأغريق من رفاق أوليس الى الهلاك ..
وهو ملاح ضئيل تائه في بحار شاسعة . يجب أن يدعي القدرة على رسم
مدارات الفلك ..

أشهر طويلة والوجه الدابل كالنجم المطفأ يطل .. والجسد يسترخي على
الأريكة .. وغناء عرائس البحر الهامس الذي يشد الى أعماق البحر يشده
الى موت مبهم ودمار ساحق محبب .. وتقول :

— أشكو من ضيق في الصدر وازدياد في ضربات القلب ، واختناق
في الحلق ، مع حاجة عميقة الى البكاء .. انني أحبه !

لأنه لا يصدق أنها هي التي تقف أمامه .. كتلة الحيوية والفتنة منصهرة
رجراجة في الثوب السماوي .. كيف استحالت هكذا من قارة مهجورة
الى آماد من الخصب والاكتمال ؟

لا نجد ما يقوله .. لا بأس في أن يرحب بها من جديد :
— أهلاً وسهلاً .. يسعدني أن أراك هكذا .. قلت منذ البداية أن
كل شيء سينتهي بخير .. ما أخبرك الجديدة ؟

— الجديدة ؟ أجل .. ألم تنصحن بالبحث عن هواية أملأ بها حياتي
بعد الفراغ الكبير الذي خلفته الصدمة ؟

— وهل وجدت شيئاً ؟

— أجل .. اكتشفت أنني أهوى ..

وسكنت قليلاً ..

— الخياطة ؟

— لا ..

— الرقص ؟

- لا ..
- الطبخ ؟
- لا ..
- البحث عن حبيب جديد ؟
- لا ..
- ماذا إذن ؟
- الأدب ! انني أكتب رواية .. وقد جئتكم بهذا الشأن !
- وما دخلي أنا بالرواية ؟
- سألت إحدى الأدبيات اللواتي سبقنني في الدرب عما يمكن ان أفعل..
- فقالت لي ان أحسن اختيار ثيابي ، وان أستاذ طيباً نفسياً خاصاً !
- والشق الثاني من النصيحة ؟
- ينطبق عليك أنت !

ماذا سوى « نعم » يجرؤ على ان يقول لها ؟! كان عليه ان يقول لها : « تممدي على الأريكة .. يبدو ان علينا ان نبدأ من جديد » كان عليه على الأقل ان يرشدها الى جاره الطيب النفسي الكبير الذي كان استاذة في الجامعة .. الدكتور بديع العلي .. كان عليه ان يسخر منها على الأقل .. انها لا تحمل شهادة ابتدائية .. هل تريد ان تكتب بأظافر قدميها قبل ان يحف عنها الطلاب ؟ لكنه لم يقل سوى نعم .. لم يقل انه يرى منذ الآن كيف يمكن ان تكون روايتها .. كيف ستبدو من خلالها شرقية « باليكني » .. لم يقل لها لما صافحته سوى : « كما تشائين » .. ولم يجد لحالته تعليلاً .. اي تعليل .. انه لا يستطيع ان يفهم شيئاً .. أعماقه مويجات سود عجيبة ..

تخرج من العيادة وتمضي، بينما تظل عاصفة العطر تعبت بردائه الأبيض . يطل من نافذة غرفته المرتفعة على القبو العميق الذي تركض فيه عشرات السيارات والمواكب البشرية .. يراها تصعد سيارتها بعد أن يفتح لها السائق

الباب .. وفجأة يفيض الندى من شقين في أعلى اللوحة التجريدية ..
يخلع رداءه كأنه يمزقه .. ماذا حدث ؟ لا يدري .. أعماقه خيطان دقيقة
متشابكة لم يعد يجد لها أولاً ولا آخرأ .. ماذا يصنع ؟

وتتجدد اللوحة التجريدية في نصر مهزوم .. لقد وجد الحل ..
يركض هارباً من عيادته نحو عيادة جاره .. يدفع الباب الذي كتبت
عليه كلمات كبيرة .. « الدكتور بديع العلي » .. يتجاهل المرضى المنتظرين
يركض نحو غرفة الطبيب رأساً .. يجد استاذة الكبير واقفاً مع أحد
المرضى .. يتجاهله .. يمضي نحو الأريكة .. يتمدد والطبيب يرقبه برعب
وذهول .. بهلبي :

— فلنبداً .. أشعر بضيق في الصدر وازدياد في ضربات القلب واختناق
في الحلق .. مع حاجة عميقة الى البكاء !

لا بحر في بيروت

يسيران ، يدها الساذجة قابضة في كهف يده الكبيرة ، وجدلياتها العريضة تهزج فوق ظهرها ، والشارع أمامها ما زال طويلاً ينفتح في نهايته عند الأفق الوردي ، فإذا به والأفق شيء واحد . وهما يحسان أن الشارع لهما والأفق لهما وأن المدينة بأكملها ولدت يوم التقيا ، وسوف تختفي ، يتلعها اخدود شيطاني إذا ما افترقا ..

دمشق ، مدينتها الوديعه ، وقد استسلمت برعونة مثيرة لأصابع الصيف لتلوها وتزينها ، وتبعث بثياب حسنها ، فتقص كثيراً من أكامها وفتحات صدرها ..

والحب ، هذا الطائر العجيب ، الذي اتخذ لنفسه عشاً في صدرها الفتي لا يهدأ .. أبداً تحفق أجنحته . أبداً يغني ، يهذي، يضرب بمنقاره ، يريد أن يأكل كل ما في أعماقها كي لا يبقى سواه . كي تصير لا شيء سوى عش كبير له . وهي تقاوم وتمرد . لن تسمح له بالتسلل الى رأسها الصغير . تريد ان تحافظ على أشياءها الأخرى الكثيرة ، ارادتها ، عقلها، وما يشغل هذا العقل الساذج المتفتح والعالم الرائع الذي لا تريد لنفسها ان تراه من زاوية واحدة خلال عيني أيمن ، او الزاوية التي يحدها هو لها ..

أنها تريد منذ خرجت من مدرسة الراهبات ان تحتفظ لنفسها بعينيها ووجهاً نظرها . لا .. لن تسمح للطير النهم بالسيطرة عليها. لن تكون مجرد جوف يردد أصداء العصفور الشره .

وهذا الاحساس بالذات جعلها تنسى المقدمات التي كانت قد أعدتها
لمفاجأتها وجعلها تهتف فجأة : ايمن ..

- ماذا .. حبيبي ؟
- قررت ان أسافر !
- ماذا ؟
- قررت ان أسافر
- الى أين ؟
- الى بيروت .
- لماذا ؟ (وكانت لماذا تقطر مرارة ودهشة)
- لأزور أخي ، والبحر ، ولأتسجل في الجامعة هناك .
- في الجامعة ؟ كفتي عن هذا الهراء ودعينا نتزوج ..
- لا .. أريد ان أتمم دراستي الجامعية . وفي بيروت بالذات كي
أكون بعيدة عنك .. ألا ترى اني الآن شيء هلامي يبحث عن نفسه ؟
- وبماذا أحبك اذا ضيعت نفسي فيك وكنت بلا شخصية ..
- هذه الكتب اللعينة التي تدمنين قراءتها ..
- آسفة لمقاطعتك . لا داعي للشجار لأنني أحبك حقاً ولكن، ما هذا
بكل شيء .

- ولكن ، أئت لا تعرفين بيروت .. انها .
- لقد درست أنت فيها ، وأحب ان أعيش في الجو الذي عايشته ..
- سأكون أكثر قدرة على معرفتك وفهمك ..
- ولكنك ستصدمين بالجو هناك بعد ما ظلت طوال عشرة أعوام في
مدرسة راهبات داخلية .

- لماذا تخيفني من العالم وتريد ان تجعل من زواجنا هرباً لي ؟ هل
سأظل الى الأبد أهرب مما أخافك ؟ هل ستكافح لتحول لي دارنا الى
مدرسة راهبات جديدة وتدعي لنفسك ولي انك تفعل ذلك من أجلي ؟

— هذه الجديلة التي صنعتها الراهبات لك في عشر سنوات لا تصلح للعالم ولبيروت ..

أجابتي في عناد دون تفكير : سأقطعها ..

— والجديلة الأخرى في أعماقك ؟

— سأقطعها وأقطعها أيضاً ..

— ولماذا يحدث هذا في بيروت بالذات ؟

— لأن فيها البحر .. البحر القديم الذي ليس ديراً كبيراً ولا امرأة مزيفة .. البحر المليء بالحب والتجدد والتنوع والضياء .. انه عالمي الكبير الذي قرأت عنه دون ان أعاشه .. الفردوس المفقود لروسو ودانتي و ..
— كفك هراء ..

كانها تحمل لا تسمعه ! تسترسل ... بحر أزرق لا ينتهي لكل منا نصيب فيه .. زرقته حضارة السماء ، وطيوره البيض وديعة النظرات كالجيران الطيبين . والأجيال التي تثبت من رماله سعادة لأن الرجال توقفوا عن وأد حبيباتهن فيها .. و .. وأشياء أخرى كثيرة لا أعرفها بعد لأنني لم أخرج الى العالم ولكنني أحس أنها موجودة ..

عيناه تتأملانها بغموض كاهن أناني شرير تتكشف له الحجب عن نبوءات مرعبة .. يهتف غاضباً : هذا البحر الذي تتحدثين عنه مات منذ زمن بعيد .. ان كان هذا بحرك فأعلمي يا صغيرتي ان لا بحر في بيروت ..

— ماذا ؟

— لا بحر في بيروت .

ماذا يعني ؟ لماذا يضايقها ؟ يستيقظ عنادها الذي لم تفلح الراهبات في تفتيته . الطير في صدرها يقاوم ، ينقرها ، يحاول أن يمنحها . لن تراجع ..

تشعر بشيء من الحقد الغامض على أيمن ، تحسه كجندي فرّ من المعركة وهو الآن يحاول منع كل ذاهب ليخوضها .. تعقب هذه اللحظة المحزنة التي لا تطول دقاتك وخازة من تأنيب الضمير .. إنه أيمن .. أيمن الذي حلفت أن أكون له وكنت صادقة لما فعلت ذاك .. سأكون لطيفة على الأقل ..

— أيمن .. سأرحل غداً صباحاً .. ماذا أحضر لك معي ؟
لم يجب . كان يعرف معنى البريق الجريء الذي اتقدت به عيناها ..
— أيمن ، قل لي ، ماذا تريد ؟ ربطات عنق أم ..
يقاطعها ببطء فدائي يحميك مؤامرة : أريد قليلاً من ماء البحر ..
لا شيء سوى قليل من ماء البحر الذي تحب .. إذا وجدته ..
— ولكن أطلب شيئاً آخر ... شيئاً صعب التحقيق .. شيئاً له قيمة ..
يقول وكأنه عزم على أمر خطير : أريد قليلاً من ماء البحر في بيروت . هذا طلبي الوحيد ...

قليلاً من ماء البحر ..
وتضحك عيناها في جدل . أيمن يجب أن يداعبها دائماً . يعرف ولعها بالثياب الجميلة ويعرف أنها ستستهلك كل ما معها من نقود منذ اليوم الأول ، ولن يبقى في جعبتها قرش واحد ثمناً لهدية له .. « هذا هو السبب في أنه طلب قليلاً من ماء البحر ... يا لها من هدية رخيصة مضحكة » !

وكادت عيناها تضحكان من جديد في جدل بينهما هي تعد حقيبتها الصغيرة قبل أن تنام .. لكنها تذكرت أن عيني أيمن كانتا تشبهان عيني كاهن مرتاع لما طلب منها ذلك . وبدأت تحس في فمها وخز الطعم ، لكنها ترفض أن تصدق ..

(فليكن .. سوف ألي رغبته على أية حال) ...
 زجاجة العطر الفاخرة التي كان قد أهداها إياها منذ أشهر ما زالت
 جديدة كأنها لم تمس . كأن العطر تبخر منها بطريقة ما دون ان تفتح .
 كانت على عادة العاشقات المراهقات تعني بها وتحفظ بها جديدة كأنها لم
 تستهلك ..
 سوف تملأ له الزجاجات الغالية بماء البحر ، ما دامت هذه رغبته ،
 فستحققها رغم ما فيها من غرابة وغموض .

بيروت

وتراها من بعيد بينا السيارة تنحدر نحوها .. بيروت جنية اسطورية
 تنفث الضباب نحو الجبال .. تتعري من غلالاتها . تنبسط مغرية مثيرة
 غامضة المري .. تكاد تسمع لشوارعها نبضاً يشبه نبضات القلب الحي ..
 لكأن في الاسفلت ، في الأزقة الغامضة ، في البيوت المتدثرة بأسرارها
 وهجاً وحرارة وحياة كما في خدي طفل متورد تفوح من فيه رائحة اللبن
 والشبع والضحك ..

(لماذا أرتعد هكذا ؟ لماذا تثيرني رائحة الحياة ؟) ..
 وتقترب السيارة من بيروت . (اني خائفة ، أحس بالإثم ولا أدري
 لماذا .. عن اي شيء جئت أبحث ؟)
 البحر يطل من بعيد هادئاً وعلماً كشباب عريض الصدر مفتوح
 الذراعين ينتظرها .. بإحساس يشبه لذة خيانة مبررة تتأمله .. تتسارع
 أنفاسها .

جارها في السيارة بدأ باختلاص النظرات إليها (لم ينظر إليّ طوال
 الطريق .. كيف أدرك انني استحلّت أمام هذا المشهد الى أنثى حقيقية ؟
 بي نشوة عانس تزف الى حبيب غامض) ..

خيوط الشمس تنكب على بيروت بنهم (اني أعبد شمس الأرض كلها .. أو من بأن لكل مدينة شمساً مستقلة ، وسوف أكتشفها جميعاً .. هذه السلسلة اللامتناهية من الكهوف الملتهبة سوف أزورها جميعاً) ...
الطائر الصغير الذي اتخذ لنفسه من صدرها عشاً ينقرها بنزق .

أختها صارت شيئاً آخر .. كيف ، ولماذا ؟ لا تدري . لقد استطاعت ان تبين ذلك منذ الوهلة الأولى بطريقة غامضة .. قبلتها لما استقبلتها منذ دقائق كانت فاترة وسمجة كقدم دجاجة . اهتمام أختها كله كان منصّباً على طريقتهما في زم شفتيها .
الدار رائعة . وكل جدار فيها بني خصيصاً من أجل اللوحات الثمينة التي تزينه .

— ماذا تحبين أن تري في بيروت ؟
لكنها لم تسمع . كانت تبحث عن عيني أختها الضاليتين في آبار من الكحل .

— ماذا تحبين أن تري في بيروت ؟ ما بالك شاردة ؟

— أريد أن أرى البحر ..

— حسناً . سوف نسهر الليلة في مكان يطل على البحر .
تنعشها الفكرة . تنهض الى الغرفة الفاخرة المعدة للضيوف تغسل وجهها .
الفقاعات تغطي ، وهي ترى بعينيها المغمضتين البحر ، بحرها الحبيب ، وترى أشباح السفن التي رحلت طوال دهور تعود محملة بوجوه تشع بالحب والتجدد والتنوع والصفاء والعمق والشباب الدائم ، وأصوات المجاديف تختلط بفنساء نسوة محلولات الشعر وقفن في الرتل البشري الكبير ينشدن سمعيات بعودة آلهة الأرض القديمة الطيبة ..

تفصل الصابون عن وجهها . تحس بالماء البارد ينعشها . ترى انها

تدس بوجهها في جلور الموج ، تحشره بين صخرتين من صخور الأعماق
لتأمل صفاء الأعماق وأسمائها الشفافة ... أنها تعبد الصفاء والحقيقة
الشفافة ...

...

الأضواء باهتة . الحلي الماسية عبثاً تسفح بريقها في العيون المطفأة ...
اختها ذات الجسد الضئيل تنوء تحت ثقل العقد الضخم الذي بعض رقبته.
الفرقة الموسيقية ما زالت تعزف وهي تتسلق اللحن الصاحب الى وجوه
العاظمين ، فتسمع وراء اللحن نجيب مسامها مفعجاً متعباً .. (هل يجب
أن يتمزقوا هكذا كي يقوموا على تسليتنا ؟) . الخادم ينحني أمامها
ويقدم لها الطبق الكبير (أشعر بالحجل حيناً يقوم عدد كبير من الناس
على خدمتي) ...

المكان لحن (جاز) متناثر الصرخات والزعقات ، لكنه بمجموعه
يشكل وحدة متماسكة من حيث التكلفة والصناعة .. (أنا النعمة الناشئة
الحزينة الباحثة عن إيقاع .. صغيرتي وحدها كافية لإيجاد النشاز) ...
تخفت الأنوار فجأة . ينسكب شلال نور شاحب على وجه غائبة
محولة الشعر ، تغني بلغة لا تعرفها انشودة مثقلة باللوعة والرقب ، كأنها
شهقة دعر في موكب يبحث عن البحر ويكتشف ان البحر قد مات ،
قد جف ، وان الشراع الأبيض اسطورة .. (اني أنا هذه المرأة الضالة
الباحثة عن البحر القديم بينما رماح النور الشاحبة تدفقا على شاشة العيون
اللاهية) ..

أختها الجالسة الى جانبها تنحني عليها وتهمس : هذا أرقى مكان
للسهر في بيروت .. هل أنت سعيدة ؟
بيّوس حقيقي تجيب : سعيدة جداً ...
تسقط نظراتها على وجه يدخل المكان . وجه مضيء يعوم في الظلمة

كان لا جسد له . وجه قوي معبر يقترب من المكان الذي جلسوا فيه .
يحمل المائدة المجاورة الفارغة . همس أختها : هذا أديب غريب الأطوار
اسمه سلمان عزمي .. انه شاعر كبير يظهر أحياناً في مجتمعنا (الراقي) ثم
يختفي مدة طويلة غير آبه لقواعد الذوق ، اكننا جميعاً نجب مجلسه ..
سوف أدعوه يوم أقيم الحفلة الساهرة تكريماً لك ...

تختلس النظرات اليه .. انه رائع ، حزين مثلي ، كأنه شهد مصرع
بحر ما ... ولما أراد العودة الى الشيطان العالية اكتشف ان بحره اختفى ،
ولما سأل عنه قال له أحدهم: البحر قد قتل .. دهسته حافلة في الشارع.
قال الآخر : البحر قد فرغ . عبأناه في زجاجات الويسكي .

قال آخر : البحر هرب . لاحقته راقصة من معابد التويست ذات
المصاعد الكهربائية وأرادت أن ترمي نفسها في أحضانها، فخشيت على أصالة
لونه من التغير الهجين .. وهرب ..

ترى لو هرب البحر الى دمشق ، أكان يبكث فيها طويلاً ؟

نظرات سلمان تتأمل جديلتها وقتاً طويلاً قبل أن تلتفت الى سرب
الراقصات الذي تدفق فجأة . (ما معنى تشاؤمي هذا كله ؟ غداً ، بعد
غد أرى البحر بالطريقة التي أريدها . أختي لم تفهمني ، لقد حاولت
تكريمي حينما جاءت بسي الى هذه اللعبة المظلمة على البحر .. انها لا تدري
انني أريد ان أرى البحر بطريقي الخاصة .. أن ألسه ، أنحسه ، أناكده
من انه موجود ...

انها لا تعرف ان جنوني قد بدأ منذ تجمعت وجوه شامته ساخرة في
عيني أيمن وهو يقول :

— اذا كان هذا بحرك ... فلا بحر في بيروت ...

...

عشرة ايام في بيروت !

يوم واحد طويل توالى فيه الأجزاء المضيفة والمظلمة ، وناست شمس
عند الأفق عشر مرات من كبد السماء حتى كبد البحر .. هكذا جيئة
وذهاباً دون أي مدلول .

أختها تلازمها ، تفرض عليها تدليلها المرعب ، وهي غريبة ، كأنها
في وليمة فخمة ، لكن الأطعمة كلها اصطناعية .. بلا نبض .. بلا عير ..
والجميع يأكلون ، والجميع يشمون الزهور الاصطناعية ثم يمتدحون
العير .. أما هي ففي تركيبتها خطأ ما .. ما زالت غريبة ، ووجه أختها
يفقد في كل يوم أحد أبعاده ، وكل شيء يلوح مزيفاً وغير حقيقي .
البحر رأته كثيراً ، رأته من بعيد ، من شرفات المقاصف التي ذهبوا
إليها ، وكان دائماً ذليلاً مستسلماً للذعاع شمس آب ، ولم تر فيه أبداً
سمكة تطفز ولا موجة تهزج ، ولم تسمع صوت المجاديف والأغاني .
بدأت تشك في ان البحر حقيقي هنا .. يخيل إليها انه لوحة رمادية
مدقوقة على الأفق .. لوحة صلبة .. وانها لو وصلت مرة الى المدعو
بالبحر في بيروت لاستطاعت السير عليه .. انه تنمة لاسفلت الشارع اهتم
الخبراء بجعل لونه أكثر زرقة .. هذا كل ما في الأمر !

أختها خلقت لنفسها مدينة لا بحر فيها ! وهي اليوم تحاول أن
تعودها لإياها . لماذا لا ترحل ؟ (لن أهرب . بحاسة الخيول الوحشية
أشم رائحة الماء ... البحر لا بد من أن يكون في مكان ما ..)

...

هذا يومها الأخير !

هكذا ظلت تواعد نفسها منذ أيام ، لكنها تظل في بيروت . كأنها
في أحجارها وشوارعها قوة سحرية كقوة الميوزا .. قوة حجرتها ،
صليتها على عمود في وسط المدينة وعيناها موجّهتان نحو البحر دون أن
تستطيع بكاءً أو حراكاً . والمثارة في مكان ما تغمر بسحرية كأنها وحدها
تعرف كل شيء .. (لماذا لا أرحل ؟) .. لا تدري ...

لا تريد أن تغامر فتذهب الى البحر وتكشف انه امتداد للأسفلت
الشارع ولا تريد أن تعود دون أن تملأ الزجاجاء بماء البحر فيسخر منها
ايمن : أما قلت لك أن لا بحر في بيروت ! ولكنهما ليست بائسة ..
أنها سعيدة بطريقة ما .. تحس ان في بيروت قوة من نوع خاص تعري
الانسان وتكشف له حقيقته .. وإذا كان البحر مات حقيقة فلا بد من
أن تلقى جيلاً حزيناً ثائراً يكافح كي يبعث البحر ..
بيروت ! انها مدينة ملطخة بالأصباغ لكنها ليست مزيفة ، لأن الأصباغ
صارت جلد العالم !

سوف تسأل سلمان الشاعر الغريب عن البحر .. لماذا سلمان بالذات ؟
لأن وجهه المضيء كان يعوم في الظلمة لما رأيته كوجه نبي .. ولأنه كان
ثائر الحزن كأنه وحده شهد مصرع البحر ..

(ليلة جديدة ، وأنا هنا ..

لقد امتصتني المدينة الاخطبوط .. شوارعها الضيقة الحزينة انغrust في
أعمالي كالأذرع الجائعة ، وتدقت أنا الى جوفها الذي لا يمتلئ مائعاً
نارياً هامداً .. وإذا أنا اختلط بالصرخات والأصواء الشاحبة والحدود
الذابلة .. وإذا أنا من بعض النسغ الغامض الحار الذي ينبض في كل
مكان ..

اني من رعايا مدينة الورق المقوى والطبول ، نقطة دم غثرة في قلب
بيروت ألوب وأتلوى بشراسة ..

حياة أختي صارت حياتي ، صارت أنا .. لكنها راضية .. أما أنا
فراضية لأنني أريد أن أبقى هنا ... أسمع أصواتاً أخرى خفية في بيروت ..
كأصوات الأنهار الباطنية .. تحت بيروت الورق المقوى ورعاياها ، لا
بد من أن تكون هناك بيروت أخرى لها رعاياها ... أسمع هدير أنهار

عميقة الجذور ، غزيرة وغنية كالبهار القديمة . من أجلها وحدها أبقي
هكذا ضالة ممزقة ... من أجلها أظل هنا في المذبح الوحشي حارة الدماء
كضحية راضية .. الآن عرفت كيف يتورد وجه بيروت الشيطاني الطفل ،
وكيف تفوح من فيها رائحة الشيع والدفع .

ما زلت أرقب الأشياء من بعيد رغم انها تجذبني .. هذا العالم النافه
أنتمي اليه بضعفي ، ولكن ... ما زال هناك شيء آخر .
لم أسقط بعد ولكنني أريد أن أعرف الحقيقة (.....)

لما وقفت أمام المرأة ، بحثت طويلاً عن عينيها حتى وجدتها غارتين
في بثرين من الكحل . أحست ان قبلة شفتين كهاتين لا بد وان تكون
فاترة وجامدة كقدم دجاجة .

هذا البحر السمج اعتادته هكذا . لو انه يثور مرة ، يرمي بالموج ،
ينثره من بعيد حتى هنا .. على وجهها ... لو انها تلمس ماء البحر
بيديها .. ماء ثرياً صافياً ، ينفك الطلسم ويبتل سحر الميديوزا وينوب
الحجر الذي استحالته اليه لتعود هي هي ... ولكن ...

(الليلة حفلة ...)

وهذه الجديلة على ظهري ثقيلة كحمل كبير .. كأنها طفولتي كلها
أحلبها على ظهري .. والنساء الملونات يرقبها بتأفف وضجر ، كأنها تنحشر
في حلوقهن أو تزكم أنوفهن .

انطلق في الشارع بحثاً عن رجل جزار أصابعه مقص حاد .. سوف
أقص جدليتي لأنني لم أجد البحر .. والعالم الذي كنت أحيأ من أجله مات
منذ زمن بعيد ، والمدينة التي أتحرك فيها ، مدينة أختي ، ما زلت غريبة
عنها . أتمسكها من وراء أسوارها الزجاجية المخيفة ، أدور حولها ..

اني هجينة ، والليلة أزف الى بيروت أخوتي وأيمن ، وسوف أواجه
بلايتها بجراً .. يجب أن أنتمي الى شيء ما .. الى أي شيء)
تقرأ اللوحة الكبيرة قبل أن تدفع الباب وتدخل . يرقبها الحلاق
باشمئزاز متعجرف . ألم تحجل من السير في الشارع بهذه الجديلة ؟
الطائر الذي يقطن صدرها يتململ كأنه يحتضر .
تجلس في مقعد الخراف . تمد يدها لتحسس الجديلة بحنان كبير ،
كأنها جثة طفلها الأول .
لن تدع عينها . خير للأطفال المشوهين أن يموتوا ، أن تحملهم أمهم
الى الجزر ...

(لن أهرب من الحقيقة . أنا التي اخترت ان أرى وأن أعرف ..
وبيروت هي دمشق وهي باريس وهي لندن وهي نفوسنا .. لا مقر) .
أصابع الجزر تغرق في الليل الأسود .. تمزقه .. تنهار الخصلات مع
حركاته المفتعلة وهو يدور حولها كالوحش ويدوس أكداش الشعر ..
ويظل يعمل .

اللحظات تمر والطير في أعماقها يحتضر ويهذي وريشه يتناثر ويتناثر من
فها وعينيها ويختلط بشعرها المجزور المتناثر ويستقر معه على الأرض ...
الحلاق يضحك ويهتف : كنت تشبهين نساء القرن التاسع عشر ...
انظري الآن كم أصبحت جميلة !

كانت سيارة أختها الفاخرة تنتظرها أمام الباب لما خرجت . ارتمت
فيها وأحست لأول مرة بأن السيارة تلائمها . صارت مساندتها أكثر
التصاقاً بساعديها وأكثر حناناً وتجاوباً .

تحس براحة دامعة مؤلمة . راحة المرأة بعد الوضع . ألم امرأة وضعت
طفلاً ميتاً ! سوف تكون أكثر التصاقاً ببيروت أختها .. بتخديرها
وأوحالها .. سوف تظل هنا حتى تجد بيروت البحر ..

الوجه الثاني لبيروت الذي نحس انه لا بد وان يوجد ... حتى تتسرب
بطريقة ما الى ذلك النهر النقي الذي تسمعه يهدير تحت الأرض وتحت
الأوحال ..

لن تعود الى أيمن خائبة يزجاجة فارغة أو مليئة بماء وملح فقط ..
سوف تثبت لأيمن أن في بيروت بحراً .. في كل إنسان بحراً .. والمرأة
أيضاً ، من حقها أن تجد بحرها لتجد نفسها ..

الى جانب أختها تسير بالشعر المصفف والثوب الضيق ، كأنها لم تقض
عشرة أعوام في مدرسة داخلية أشبه بالدير .

تدخلان الملهى الضخم . هذا العالم الذي تعيشه مع أختها تحس انها
تحبه وتمشاه ... (أيام وأيام ... لا جديد . اني خائبة ، فاشلة ، لا
أدري كيف أبدأ . لا أدري كيف أعود . لقد قصصت جديلي . جعلتها
جواز مرور الى أسوار مدينة السراب ، قلت لنفسني سوف أحفر في
الرمل حيث السراب فقد أجد الماء لكنني أزداد ضياعاً . أكاد اتخدر قبل
أن أجد شيئاً . بدأت أخاف نفسي . الغرور الذي يدغدغ عنقي ، هذه
العقارب السود التي بدأت تزحف نحو العصفور الغريد في صدري وتمحصره .
اني بطريقة ما انتمي الى هذا العالم البائس .. هذه الأفراس المختلة ،
هذه اللذان المحرمة هي أرض المهجر . وهذه المرأة التي تنتحب في ركن
المكان وتدعي انها تنغي ، أولئك الراقصون يرتعدون ويجسدون في حلمهم
حكاية الجنس والوحشة والقلق والأفق التابوت ... وأنا أكاد أجدني جزءاً
من رعب النمو السرطاني والانسحاق الممزق . لن أستطيع الهرب فساحلي
مات منذ عصور بعيدة . قضيتي هي أن أعيش في مدينة السراب كأهلها ..
لينني أظل أواجه الأشياء دون أن تتسطح ملاحي وتختصر أبعادها) ...

— هل تسمحين بهذه الرقصة ؟

- أجل .

تنهض تستسلم للذراعي الغريب .. لماذا لا ترقص ؟ (ان العالم قد تغير ونحن الذين ننتمي الى قرن مات ، نحن الذين نحمل قنبلاً بادت ، علينا أن نتخلى عن رمح دون كيشوت ، وعلينا أن نتعلم كيف نجامل ونكذب ونكره ونراقص رجلاً بيننا نحمل بأننا بين ذراعي آخر) ...

يفرون المعزوفة فجأة . لحن التويست الفاجر ينبثق في العيون كأضواء بلا لب . ترقص بجنون كأنها تتحب (البحر الاسفلتي الجديد بحاجة الى بشر من نوع جديد .. يتمايئون مع صخوره ذات الطوايق المتعددة والمصاعد الكهربائية . ورماله الاسفلتية التي انفرست في جسدها رماحاً طويلة تندرج عليها حافلات متخمة بالناس والعرق والملل) ...

شاب بثياب الاستحمام يعبر الشرفة حيث الراقصون ، متصليصاً ملتصقاً بالجدران ، وحيبيات الماء ما زالت تغطي جسده الرياضي . (يبدو انه من هواة السباحة في الليل) .. تلفت نظرها حيبيات الماء العالقة بجسده .. أهي ماء حقاً ؟ تساورها رغبة وحشية بالركض ورائه وتحسس الماء على جسده ، وتمريغ وجهها في عضلاته لتتأكد من انها ماء حقاً ...

يخفي الشاب قبل أن تفعل شيئاً ..

تعود الى التويست ، يعول المغني بشراسة : تويست تويست .

ويضيع الجميع ...

...

وسهرة جديدة ...

الأنغام تتسلل الى غرفتها من البهو الفاخر . وهي قد انتهت من ارتداء ثيابها . تدخل أختها : اسرعي فقد جاء المدعوون جميعاً . كلهم في شوق الى رؤيتك .

- سألتك بك بعد قليل .

- اسرعني ، سألقي عنك سلبان عزمي منذ لحظات .. قال أين ذات الضفائر ؟

- سلبان عزمي ؟

- أجل هل تذكرته .. انه الشاعر الذي ..

- أجل تذكرته . شكراً .

لم تنس وجهه المضيء الذي كان يعوم في الظلمة كوجه نبي . تخرج أختها . تمد يدها الى حقيبتها بحثاً عن قرطبيها . تصطدم يدها بزجاجة المطر الفارغة التي كانت قد أحضرتها معها لتملأها من ماء البحر. تلتصقها برودة الزجاج كأن الزجاجة معبأة بألف شتاء .. تنحاشي النظر اليها ، تخافها . لن تعود الى دمشق ما دامت هذه الزجاجة فارغة ... سوف تملأها من البحر ومن بحرها هي ، لا من بحر أختها ...

لكن بحرهما مات ، وهي لن تعود ، سوف تنتصر على المزيمة بأن تحبها .. سوف تحب بحر أختها !

تهبط الى القاعة . كلهم يلعبونها بنظراته . انها قبة الأنظار . سلبان يتجه نحو المكان الذي وقفت فيه وحلقة من الشبان التحل نحو حولها . كانت تبحث عنه ، بطريقة ما تحس ان أمامها كلمات كثيرة لم تقل .

الوجه المضيء يعوم في الظلمة الحمراء كوجه نبي. تنسحب من الحلقة وتنتبه نحوه . قريب منها كإله . ترفع اليه وجهها بوداعة . ترى كيف سيبدأ التعارف ؟ تراهما يلتقيان كالغرياء .. كالناس جميعاً .. يهمس كأنهما صديقان منذ زمن بعيد : أين صغيرتك ؟

شيء عجيب في عينيه ، شيء مطمئن في اتساع صدره ، شيء سريع الفهم في ملامحه القوية ، كالورشم الخفي في ابتسامته المحيية ، لا تدري أي شيء جعلها تجيب ببساطة كأنها عرفتة واطمأنت اليه منذ زمن بعيد ، معرفة غامضة كالتى تربطها بأبطال الروايات التي تحب ...

- ضفيري ؟ هل يهلك حقاً أن تعرف ؟
- أجل ! لماذا تخلصت منها ؟
- لأن البحر مات !

- لم يكن المكان فاخراً ، ولكنه كان يعبق بالروائح الانسانية .. بالحزن والعرق والحيز ، بالتعب والشحوب والتحفز ..
- ترتمي على مقعدها متعبة ، ويرتمي سلمان الى جانبها ..
- كانت جولة رائعة .. لقد وجدت الوجه الآخر لبيروت .. الوجه ذا الابداد .. الدرب الى البحر ..
- تلتهم الموسيقى الصاخبة بقية كلماتها .. يدخل من الباب شاب طويل له ذقن محببة تغطي نصف وجهه ، وسمراء حلوة تستند اليه ..
- هذا أديب كبير ، وتلك صديقته تكذب القصة ... انهما يعيشان بحثاً عن قضية .. حزن رهيب يلاحقهما ، انهما حزينان لأنهما لم يعرفا البحر ، ولأنهما لا يعرفان انه سبب حزنهما ...
- أنت على الأقل .. تعرفين .. لقد احترقت في أسابيع كما لم يحترقا في سنوات .. لا تسمعه . عيناها معلقتان بيده التي تناول بها لفافة «كنت» وانتزع (الفيلتر) منها وألصق شفثيه باللفافة العارية .. تنظر اليه متسائلة ..
- انني أكره الحواجز التي تفصل بيني وبين الأشياء .. أريدها كما هي ، مرة ، حقيقية ، لاذعة ...
- لماذا تبتاع إذن لفافاتك من نوع (الكنت) ...
- من أجل الآخرين والأصدقاء ...
- أما زالو يهمونك ؟
- أجل ! كلهم أنا .. أكره المتعربين الذين يتخذون من ثقافتهم ذريعة للتخلي عن الروابط التي تشدهم الى الآخرين .. رغم أنهم يعيشون

معهم .. يستمدون منهم الاعجاب أو الاهتمام .. أو حتى الكراهية ..
انني أبداً أنوس بين الأنا المفردة وبينهم فأهرب ، ثم أعود الى الآخرين
لأحب وأحب وأحب ..

يسك بكأسه ويرمي بمحتوياتها في جوفه ...
- ألا تسكر أحياناً .. وتنسى ؟

- أبداً..أنا من جيل لم تعد المسكرات لتخدر ضميره .. أضحي الاهتراء
أقوى من أي مخدر..اننا على مفترق الطرق وألف قوة تشدنا الى ألف جهة..
ما نقرأه .. ما اعتدنا عليه .. ما نفكر به .. ما نمارسه بحكم العادة ..
الآخرون .. نحن . العالم الكبير . والبحر الذي يجب أن لا يموت ..
- ولكنه مات .

- لم يمت . ابغني عنه ، واملأني الزجاجة لصديقك أيمن . ساهمي
معه في إنعاش الموج الخالد .

- انه يعتقد ان لا حق لي إلا برؤية ما يريد لي أن أراه .. سوف
أبقى معك !

نظراته الغامضة الدافئة تمنو على تشردها .. تلملمها من الليالي التي
تشتت فيها .. بشدها من يدها الى حيث يرقصون ..
تدفن رأسها في الصدر العريض وتستنشق رائحة الهشيم والدخان والحزن ،
وعبر أعوامه الأربعين .. ما أحلى رجولة الأربعين !

يسيران ، ويدها التي لم تعد ساذجة مستكنة في كهف يده الكبيرة .
ولم يعد على ظهرها جدبلة تهزج، ولم يعد في صدرها طائر أهوج يصفق ،
والأزقة الضيقة لا أفن فيها ...

- سلمان ..

- ماذا حبيبي ؟

— قررت أن أسافر

— ماذا ؟

— أن أسافر ..

— الى أين ؟

— الى دمشق .

— لماذا ؟

وكانت لماذا تقطر مرارة ودهشة ..

— لأخبر أيمن بما حدث .. بصراحة وصدق .. سأخبره بأنني وجدت البحر معك ..

— هذا غير صحيح .. لم تجدي البحر بعد ..

— سأجده .. أرجو ذلك ...

— اذا وجدته ، قولي لأيمن بأنك ستشاركين في إحيائه .. مستضمين اليه موجة جديدة ..

— سوف يسخر .. انه يؤمن بأنني لا أصلح إلا لبعث رائحة الطعام في المطبخ ..

— قولي له انه مخطيء ، وانه فشل في قتل البلدة الطيبة .. قولي له لا بد من أن تثبت حتى ولو دفنت ، ستثبت ..

— سأقول له انني عاجزة عن الهرب من وجودي كإنسانة ، وانني قررت الانضمام الى موكب المنفيين ...

— هذا جيد ..

تعلو وجهها سحابة كآبة ، ونحس بريش الطائر الذي كان يقطن صدرها يتناثر من فمها وعينيها مع كلماتها ...

— سوف تكون مهمتي شاقة .. لقد أقسمت على الوفاء ، وكنت أعني ذلك لما قلته ..

- لقد أقسمت بأن تحنطي عينيك ، فلا تري بهما إلا ما ترغب عيناه في عكسه .. هذه العلاقة كانت تجسد الجانب المراهق من شريقتكما ..
- ولكنك درس في الجامعة الأمريكية عدة سنوات ..
- أجل ! كان أحد طلابي وأنا أعرفه جيداً .. كان يراقص اخوات أصدقائه ولا يسمح لهم بمراقبة أخته .. انه لا يؤمن بما يفعل ويهرب من مواجهة الأشياء ..
- كانت تحبه ، تلك الفتاة الساذجة ذات الجديلة ..
- وأنت ؟
- أنا ملتصقة بك ، جذوري تعانق جذورك التي تقودها الى حيث الماء .. الى حيث نهر الصفاء يهدر تحت الأرض ، تحت الشوارع المزدهمة .. تحت الأوحال ..
- يجب أن تثبتي ذلك !
- لك ؟
- لنفسك أولاً .. ثم له ..
- كيف ؟
- يجب أن تحملي اليه قليلاً من ماء البحر .. ماء يحرك انت ، يجب أن يكون في عينيك عزم وفي وجهك عمق واصرار وتحفز .. لا يكفي أن يكون في الزجاجاة ماء مالح ..
- ماذا تعني ؟
- كان يريد من زواجكما هرباً لك من أشياء يخافها هو ! ..
- ولكنني خائفة حقاً .. خائفة من أن لا أجد البحر .. اقسم لك انني أصبحت أؤمن إيماناً مرعباً بأن البحر هنا مجرد امتداد اسفلي للشوارع .. وإذا كان ماء .. فلن يكون سوى مجرد ماء وملح تفوح منه رائحة الاسماك المتفسخة الملتصقة بأعشاب بحرية مشوهة النمو وتطفو عليه أخشاب مراكب نحرها الهرم والدود ...

— أريدك جريئة .. ما دمت قادرة على الفهم فأنك ستكونين تعيسة
جداً اذا لم تكوني قادرة على التنفيذ أيضاً ...
— دعنا نذهب معاً ...
— لا تهربي .. ليست القضية أنا وأنت والماء المالح ... انها أنت ،
والعالم ... يريدك مثله خائبة، وبلا بحر ! .. عليك الآن أن تعرفي نفسك .
— سأذهب وحدي ...
— أجل ! يجب أن توجدي اعتناقك بنفسك .. أقرب الناس اليك ،
الحب نفسه عاجز عن أن يمنحك زجاجة من ماء البحر !

(الآن أبدأ بحثي .. ماذا لو لم أجد البحر ؟ ماذا لو غرفت من
البحر ملء زجاجة وظللت أشعر بأنني لم أجد البحر حقاً ؟ هل أعود الى
أين وأرضي بصدقة بلا نوافذ نعبد فيها وثن خيبتنا ؟ ام انني انسلخت
عن وجودي السابق وقضي الأمر، ولم يعد أمامي إلا أن أنوس بين سوري
ومدينتين ، مدينة مهترقة نبلتني ، ومدينة سورها الأول سراب وسورها
الثاني غاية من الأيدي المتماسكة المعروقة) ...

سيارة تقف . « سيرفيس » رأس بروت .
تصعد . للمرة الأولى لا تركب سيارة أختها الفخمة ...
هذه الشوارع اللاهثة التي أدمنتها تحبها ، تحب كل حجر فيها ، كل
بصمة دائمية على كل جدار ...
« آخر الخط يا شباب » ..
يوقظها صوت السائق . تهبط .
البحر ..

تسير على الرصيف وتطلّ من عل على البحر .. للمرة الأولى في هذه
الزيارة تراه قريباً هكذا .. قوياً ، جليلاً ، مهيباً كشخ وقور ..

تخرج من حقيبة يدها زجاجة العطر الفارغة . (سوف أملأها حالاً
وينتهي كل شيء . لقد صدمت في البداية وصور لي الوهم ان البحر هنا
لريحة دقه الخبز بمهارة على الأفق .. ولكن ، كيف أملأها ؟ الرصيف
مرتفع جداً وسوف يكون منظري مضحكاً وأنا أتسلق السور وأهبط
الصخور القليلة لأبلغ البحر وأختلس منه حفنة من ماء .. لست هنا حرة ..
كل عين هنا تحرمني من مجرد القدرة على السير بخطوات عفوية نحو
البحر .. سوف يظن المارة اني مجنونة . ما زلت أخافهم . ما زال يعنيني
ما يمكن أن يظنوا ، من الخير لي ان أبحث عن مكان آخر مناسب .
سوف أسير قليلاً ، فقد أجد لنفسي مخرجاً) .

تسير ويدها ملصقة بالافريز الأسود وعيناها على البحر ، وراء السور
الأسود .. (لا ريب في أن أيمن قد تخداني دون أن يفهم ما يقول .
أم تراه كان يعرف ؟) ...

تسير وتسير .. لا منفذ على البحر . لن تستطيع الحصول على حفنة
من البحر ما لم تعرض نفسها لأن تكون أضحوكة للمدينة ، للعابرين ..
(ما دمت أخاف الآخرين دون أن يكون هنالك ما يدعو الى ذلك فإنني
لن أحصل على زجاجة من ماء البحر) .

تمسح عرقاً حاراً كالدم عن جبينها وعن عينيها ..
(لماذا يسورون البحر هكذا ؟) !

زمن طويل مضى وهي تسير على الشاطئ المرتفع تارة ، والمسور بقضبان
سود تارة أخرى .. زمن طويل مضى وهي تروح وتجيء ، وهي الآن
متعبة تحس انها ضئيلة وتلك الأبنية الكبرى تواجهها فاعرة الأفواه كأنها
تصرخ بها : البحر لنا أينها السارقة ..
- ولكنني أريد نصيبي من البحر !

هناك قوة تحارب اعتناقنا . الآخرون لن يمنحوني زجاجة بحر . لن
أتحاذل .

المسيح العسكري .

تقرب من الجندي الذي يقف أمام الباب . (لماذا لا أدخل الى أحد
المسابيح وأتخلص من مشكلة السور الذي يطرقون به البحر هنا ؟) ..
الجندي يعترض طريقها « بطاقتك ؟ »

— اسمح لي بالدخول .

— أين بطاقتك ؟

— لماذا ؟

— ممنوع الدخول بلا بطاقة .

— لماذا ؟ ألا يدخل الناس الى هنا ؟

— يدخلون باشتراك .. أو ببطاقة من (....)

— ولكنني أريد أن أملاً هذه الزجاجة من ماء البحر .. فقط .

— لا يصدقها ، تزعمه الكذبة الساذجة : ممنوع .

— قليلاً من ماء البحر الذي تحرسه .

— ممنوع .

— سأدفع ثمنها .

— ممنوع !

تبتعد بينما يدير الجندي وجهه بقرف مدمداً : بنات اليوم المجنونات..

ثم يضم بندقيته ، ويروح ويجيء في حراسة البحر .. البحر للذين
يحملون البطاقات . ترى كيف تحصل فتاة بلا بطاقة على زجاجة من ماء
البحر ؟

(لماذا يسورون البحر هكذا في بيروت ؟ بحري الذي أبحث عنه لا
يمكن أن يكون مسوراً .. انه بلا حدود .

لا أريد ان املاً مجرد زجاجة من الماء المالح أعود بها الى ايمن وفي عيني نظرة منكسرة . بحر أخني موجود في أي مكان : قليل من الماء ، ملقعة من الملح ! اريد ان املاً الزجاجة من بحري .. من بحر سلمان .. من بحر المنفين المزرق بأحزانهم ، الهائج بثوراتهم ، بأساطيرهم، وقيمهم.. لماذا منعني الجندي من الدخول وأحالني الى السيد (...) ؟ هل قسموا البحر أيضاً الى اقطاعات وممتلكات ؟ هل غرسوا راياتهم في جثة البحر وقسموه وسيجوه) ؟

قليلاً من ماء البحر ! كيف ؟
أسهل عليك أن تدخل الى أحد المخازن كالفتيات المحترمات وتشترى له ربطة عتيق ، قلم حبر ، علبة لفافات ذهبية ، من أن تملأني هذه الزجاجة بماء بحر حقيقي وتحملها كأية فتاة لها بحر !

« فندق الريفييرا » منتصب وراءها . يرقب وقفها المتعبة على الرصيف ، والبحر في الأسفل يلعق أقدام الصخور بذل ، يصفعها بحقد ، والافريز الأسود حار يلسع يديها اللتين استندت بهما اليه ...
شبان عراة في الأسفل يرطبون بالماء أجسادهم . لماذا لا تنادي أحدهم وترجو منه أن يملأ الزجاجة لها ؟

تصرخ وتلوح بيدها دون أن تأبه للعابر الذي يحرق اليها بذهول :
يا شاب .. يا شاب .. أنت .. أجل أنت ..
يلتفتون اليها . ما زالت تلوح بيدها كسجينة في جزيرة . أحد الشبان يعضد الصخور نحوها . انه يقترب . سوف تنتهي الأزمة . بطريقة ما تشعر انها تتخذ نفسها !

يقف أمامها فتى قوي شبه عار وقد لوحته الشمس واكسبت وجهه لوناً حاراً . وازداد وجهه حرارة وهو يتأملها ويسأل بدهشة : نعم .

— أريد أن أطلب منك طلباً .
بحرارة يحجب وهو يتأمل وجهها الفاتن : اطلبي أي شيء ..
— اريد ... اريد قليلاً من ماء البحر ...
— فقط يا حلوة ؟
تتجاهل يا « حلوة » ...
— أرجوك ، املأ لي هذه الزجاجاة من ماء البحر .
فتاة تتحرش بعراة البحر !.. لا بأس ، سوف يستجيب للمغازلة
الطريفة ..
— سأملأها لك من دموعي .. من دمي .
— أرجوك بسرعة ..
— انتظري ، سوف أرتدي ثيابي وأجيء بعد لحظات .
يركض ليرتدي ثيابه ، ويذكر الليرة اليتيمة في جيبه: سوف يتدبر
الأمر على أية حال (أسلوبها في التحرش مبتكر ووجهها جميل وبهيء ..
إنها مبتدئة رائعة) .. يركض ، والزجاجة ما زالت في يدها فارغة ،
وصوت مالح كالدموع يهمس في صدرها : الآخرون لا يمكن أن يمنحوا
البحر ... لا أحد يستطيع أن يمنحني البحر .
يخرج إليها بعد دقائق ، يرى أنها اختفت .

لا ريب في أنها مشت زمناً طويلاً دون أن تدري . قدمها تثنان
كعجلات صدئة مستسلمة لقائد أهوج . الخليج رائع . رأسها ثقيل ،
لم تعد تقوى على حمله . الشمس ورده البحر الوحشية ، التي تفتح كل
ليلة في أحضانها ، تملأها غيرة وحسداً .. تلك الشمس السعيدة التي تنفوس
حتى أعماق البحر .. أنها وحدها تعرف الحقيقة وتحرق كل من يسعى
إليها ، كل من يحاول كشف أسرار عشيقها البحر ..
طوال النهار كانت تلهب رأسها لتبعدها عن البحر .. لكنها الآن

ترحل الى أعماقه حيث تأوي وتستريح في كهوف عجيبة الألوان .. وهي
لن تستسلم، ستظل تبحث حتى تدرك كنه البحر الذي تحميه الجنية الشمس.

لا تدري كم من الوقت مضى وهي في جلستها هذه .. كل ما تعرفه
انها لما فتحت عينيها ، رأت أن الشمس لم تعد موجودة ، والسما ليس
مظلمة تماماً بعد ، والقمر قد تسلل من مكان ما يمتصغ العتمة والريح ..
ووسط نجيب الأمواج هنالك مصباح قوي يضيء ويقترب من الشاطئ ..
يلوح ليقظتها المتعبة كالرؤيا بينما القارب بهتز وشبح رجل يتعثر فيه ..
المصباح ينوس في يد الرجل العجوز الذي هبط منه ..
تراه من بعيد يسير بطيئاً متعباً ، يقترب . تنهض نحوه راكضة ..
تتعثر فجأة . لم تكن تدري انها منهكة هكذا ..
قريباً منه تقف . تراه ، تستشقه ، تتذوقه . انه عجوز غريب ،
لحيته من أعشاب البحر ، الملح والصقيع في أهدابه .

— ماذا تريدان ؟

صوته منقطع كصوت المد والجزر . تحس برغبة عميقة للبكاء أمام
هذا الرجل العتيق العتيق ، ككهف عايش البحر طيلة عصور .
لا ريب في انه يفهمها دون أن تفسر ، دون أن تشرح ماذا تعني
بالنسبة اليها زجاجة من ماء البحر الحقيقي ، بحرهما .

— أريد قليلاً من ماء البحر ، أرجوك ، املاً لي هذه الزجاجة .
أمسك بالزجاجة بين أصابعه التي تبدو كسلاميات عتيقة ، كعظام
أسماك أثرية في شاطئ مهجور .

لم يد على وجهه أية دهشة .. ببساطة ، وبشيء من السرور الخفي
حملها واتجه نحو الماء، وعاد بها بعد لحظات مملوءة بماء البحر المالح العذب.
وبلا كلمة ، حلت الزجاجة مهدودة متعبة ، وعلائم نصر منكسر
تضيء عينيها فتبدو شاحبة دامعة كشوارع بيروت قبل الفجر .

ولما وقفت على أسفلت الشارع العام ، تذكرت ملايين الكلمات التي كانت تود أن تقولها للشيخ البحر، والتفتت اليه لتودع في نظرتها الأخيرة زخم كلمات كثيرة لم تقل ، ولكنها لم تجده !
تمتمت : لعله استلقى على الرمال ليستربح ، لا ريب في انه صياد عجوز متعب ..

تجسّ حدساً مكثفاً عميقاً الى درجة الإيمان بأنها لو عادت لتحدثه فلإنها لن تجده أبداً .. المصباح قد اختفى .. والقارب ... ولم يبق إلا سؤال كبير يفرض نفسه .. ترى هل يمنح البحر نفسه ؟ هل يمنح بحرهما نفسه ؟ وحتى لو رق كما رق الليلة ومنح نفسه ، ترانا قادرين على الأخذ إذا لم نكن في مستوى العطاء ؟

(كيف ، كيف ، كيف أبداً ... حتى الآن لم أجد النقطة التي يجب أن أنطلق منها . انها ليست الحب ، ولا مساعدة الآخرين ، ولا الاستجداء ، ولا العناد الأعمى ... هنالك شيء ما لم أجده حتى الآن .. أين ؟ وقد نبشت الأشياء حولي .. أين) ؟

الليل ، والشرقة المفتوحة ..

زجاجة من ماء البحر المالح أمامها على المنضدة . لقد أعدت حقيبتها، وبعد ساعات يعود النهار وترحل ، وبعد ساعات تحمل الزجاجة الى أين.
لا تدري لماذا تجسّ بأنها لن تجرؤ على أن تقول شيئاً. تجسّ بانكسار مفعج كهذا الليل العميق .. انها لم تجد البحر حقاً .. لم تجد البحر .. فلتعترف ، رغم ان البحر أبدى استعداداه ومنحها نفسه ولكنها عاجزة عن الأخذ ، لأنها ... لا تدري لماذا ... فلتعترف ... هذه الزجاجة أمامها مجرد ماء وملح ، كبحر أختها .. ليست مزقة بأحزانها، وليست هانجة بثوراتها وليست مكثفة بقيمها وأساطيرها ..

ماذا تفعل ؟ سوف تكتب لأيمن رسالة تعرف فيها بالفشل . لن تذهب . لن نخادع ..

تستعرض حوادث يومها المحموم .. ماذا فعلت ؟
(ترى كيف تحصل فتاة بلا بطاقة على زجاجة من ماء البحر ؟
الآخرون لا يبالون .. لا أحد يستطيع أن يمنحني البحر .. البحر لا يمنح نفسه حتى ولو أراد .. ما دمت أخاف الآخرين دون أن يكون هنالك ما يدعوني إلى ذلك فإنني لن أحصل على زجاجة من ماء البحر .. ماذا أصنع .. ماذا يا سلمان .. يا سلمان) ...
وتحس سلمان قريباً منها، بوجهه المضيء كوجه نبي ، بصوته الغامض الأمر كقدر ..

يا سلمان ، اني استنشقت في الليل ، في نسيم البحر المالح .. ماذا أفعل ؟ تأوي الى فراشها ، متعبة ، متعبة ، كأن الشمس ما زالت تلهب رأسها بالحصى .. ليتني أنام سريعاً لأستريح .

تسير وتسير عارية القدمين في دروب طويلة من الحصى والماء البارد على شاطئ البحر .. تريد أن تقترب من الماء وتشرب لكن عشرات العيون تتأملها بسخرية ، عشرات الأصابع تشير إليها باحتقار .. وهي تخاف شبكة الأصابع الساخرة ، وهي ترتعد أمام النظرات العنكبوتية المستنكرة . تنسمر في مكانها . يفيض البحر ويتحول إلى مستنقعات تغمر بالحيتان والتماسيح وبموسيقى من عويل . الشمس تقترب وتقترب . العرق يسبح منها .. الشمس تكاد تحرقها ، تلتصق بوجهها . بعينها . تصرخ . تسقط وهي تهتف : يا سلمان . أئمن يضحك شامتاً . تسمع ضحكته من كل مكان دون أن تراه . ضحكاته تنبع من أعضائها الخائبة . شفتاه تنفتحان كالقروح على يديها وساعديها وتقهقهان وتصاب أعضاؤها برعشات جسد يتعذب بالكهرباء ، تسقط فجأة والشلل يستولي عليها . سلمان يريد أن يلتفت لكنه ملجوم كالحصان لا يملك إلا أن يسير . قف يا سلمان .

الشفاه الساخرة تفتش كالقروح الدامية في جسدها كله . ضحكة أمين الوحشية تملأ المكان كأفراح عملاق شرير . يا سلمان .. ريش الطائر يتطاير من فمها من عينيها ، من فتحتي منخريها .. يا سلمان .. ينحشر الريش في حلقة ، جديلة فاحمة تلتف حول عنقها وتشدها الى الأرض ، الى الأرض ، الى الأرض ، الى حيث هي أفعى من ملايين الأفاعي في المستنقع الذي كان بحراً .. يا سلمان .. يا سلمان » ..

تفتح عينيها وتقف ويقتطع حراء تتألق في عينيها . تتقدم من المنضدة حيث أدوات الكتابة وزجاجة العطر وماء البحر المزعوم . تضرب الزجاجات بيدها . تنقلب . ينسكب الماء منها بسرعة ويرفع نحو الورق النشاف .. ورقة النشاف تمتص البحر بشراهة ، بشراهة .. لحظات ولم يتبق من الماء شيء .

لقد جف البحر لما أخافتني نظراتهم .. الآن ، الآن فقط عرفت كيف أبدأ .. ومن أين يجب أن نبدأ جميعاً ..

...

— الى أين ؟ السيارة تنتظرك . هل غيرت رأيك ؟
— شكراً سأخرج وحدي قليلاً ، وحينها أعود سأرحل فوراً الى دمشق .

— سوف ينتظرك السائق على أية حال ، تستطيعين الرجول متى شئت .
— شكراً أيتها الأخت (العزيزة) .. وهمس لنفسها (المسكينة) ..
— هل قضيت البارحة ليلة هادئة ؟
— لماذا ؟

— سمعتك تصرخين .
— أنا ؟
— أجل ! كنت تقولين شيئاً لم أفهمه، ولكن اسم سلمان كان واضحاً ..

كنت تنادينه ..

— هذا غريب !

تخرج من الدار . سيرفيس رأس بيروت . زجاجة فارغة في حقيبة يدها الصغيرة .. الرصيف المرتفع . البحر خلف السور الأسود ، البحر المهجور المزرق بالأحزان ، الكثيف بالقيم والأساطير ..

أمام السور مجموعة من الشبان والفتيات المدللون كسياراتهم الممتدة على طول الرصيف .. تقترب منهم ومن السور وتلحظ أن نظراتهم تنزلق عليها في كثير من اللامبالاة .

تقف أمام السور وكأنه السور الذي يفصل بين حياتين ، بين مرحلتين ، وتقفز فوقه ، تتجازه نحو الناحية الأخرى ، ناحية البحر ، وتسير مرفوعة الرأس .

لا تلتفت ، لا يهملها فضولهم ، تحس بنظراتهم جميعاً تلتقي على ظهرها كالنبال المسمومة ، لا تلتفت ، تقفز على الصخور بخفة وتنحدر نحو الماء ببساطة ، الزجاجاة في يدها ، قبل أن تملأ الزجاجاة بالماء تلتفت اليهم وقد تفجر في عينها بريق نحد عميق الجذور ..

وتراهم جميعاً ينظرون إليها ساخرين ، يتحدثون بصوت مرتفع ويشيرون بأيديهم ، لا تبالي ، تحس أن العالم الخارجي لم يعد كل شيء ، لم يعد يفرض عليها قوانينه بأجمعها ، لقد قررت أن تنفهم الأشياء ، أن تختار الأشياء التي تخضع لها .

لماذا تخجل ما دامت لا تفعل شيئاً تحس بفطرتها ونظرتها المعزولة عن المؤثرات الخارجية انه مخجل؟ ألمجرد ان الناس يتدخلون في حياتها بنظراتهم البله عليها أن تخجل ؟

تملأ الزجاجاة بالماء .. من البداية كان علي ان املأها بنفسي ، بيدي ، بلا مخجل كان علي ان أقفز السور ما دمت لا أقترف شيئاً يشوه انسانيتي كما أراها أنا ..

تخرج الزجاجاة من الماء بعد لحظات والقطرات الرائعة ما زالت تبللها وتبلل يدها حتى الرسغ ، وتعود نحو السور والرصيف مرفوعة الرأس تواجه النظرات الفضولية ، والتعليقات الساخرة بكثير من الاعتزاز . (بيدي أنا كان علي أن أخلق بحري ، أن أكون لإنسانة جديرة به) .
تصل الى السور وتقفز من جليد الى الرصيف .. تمر بهم سعيده ، لامبالية . (لقد اقلعت عيونكم المدقوقة في وجهي ، وبصقت كلماتكم الملصقة على لساني ، وتمحورت من آليتي في الإحساس ، من ردود الفعل المسبقة الجماعية .. لقد ولدت اليوم .. الآن) ...

تسير وتعليقاتهم الساخرة تزداد . لقد وجدوا مادة للضحك . وتضحك . لماذا يسخرون الآن ؟ ألم يكن منظري وأنا أقفز كحيوان غريب وأرقص التويست أكثر سخافة وبلاهة مما هو الآن ؟ ألم يكن وجهي بلا تعبير وجسدي بلا ضابط ؟ أما كنت أهين انساني ساعتيها .. لماذا لم يسخروا وقتها ؟

الآن ، الآن فقط تعود الى دمشق .. ماذا تقول لأيمن ؟ ستقول له كل شيء ، ستقول له أن لا بحر في بيروت للذين لا بحر في نفوسهم .. أما هي ، وسلمان فقد وجدا درهما .. الطائر ؟ مات مع الضفيرة والخوف والعقل الذي يتبنى وجهات نظر الآخرين دون أن يفكر ...

وتسير ، بيروت ، يا حلوة ، يا حزينه ، يا وجهك الملطخ بالاصباغ ، لست مزيفة ، لكن الاصباغ صارت جلد العالم ، ولست شريرة ، لأنك دمشق وباريس والصين وكل مكان .. ولأنك من نفوسنا .. ويوم نجد جميعاً بحرنا يعود اليك بحرك .

ويبيكي الرقم ٢١٦

كنغمة ناي خافتة كانت تساب الى جانبه مخدرة منبهة .. وهو يسير
كدمية حدد صانع الدمي خط سيرها .. انه مبعوث الحكومة الى هاواي
لمدة شهر . انقضت مدته . قام بمهمته . وعليه الآن أن يركب الطائرة .
المقعد الثاني الى اليمين . يهبط في باريس . ينام ليلة في فندق - البارون -
الغرفة رقم ٢١٦ . يتابع رحلته الى مدينته . يعود الى داره . يرسو في
السريز قرب زوجته .

الخدم الذي يسير أمامه وقد حمل حقائبه يقف . يضعها على الأرض
الى جانب حقائب سائر المسافرين ثم يحرك ذراعيه بحرية يحسد عليها ...
« آه لو أحرر ذراعي مرة واحدة لأضمها الى صدري وأغرسها فيه
أبدًا ... » يعرف انها هي أيضاً تتمزق بصمت .. لكنه يعرف أيضاً
انها تؤمن بإيماناً عيقاً بأن شيئاً رائعاً سوف ينبثق من ألبها ... ان لها من
أساطيرها ما يحميها ..

وهو يجب نمردها المستسلم ، ويجب قوتها المستكينة .. لماذا اختارتها
الحكومة لمرافقه ؟ لماذا حملوها طوق الياسمين وتركوها تلف به عنقه ساعة
وصوله الى بلادهم ؟ يا لعنة الطوق الحبيب .
.. لماذا قبلته ؟ لماذا رافقته طوال الشهر ؟ أليس في مدينتهم
سكرتير رجل فظ يرافقه عوضاً عنها ؟ آه كم أحب أساطيرها وأغانيتها
وأسلوبها الانساني الغريب في التفكير !

انها تمس ، تذكره بنسيم الشاطئ .. ما أعذب لغتها الانكليزية :
« أحقاً انك سترحل ! »

أهدابه ندية .. « أجل » .

تضحك . ضحكها الخافتة الحزينة التي تذكره بظلال الآلهة في زوايا
المعابد . تهتف به : « لماذا نيكبي من أجل كلمة لم تقلها ، وساعة لم
نعشها ، ومدينة لم نعرفها » ؟

هذه الفيلسوفة الصغيرة يعرف ماذا تريد أن تقول .. كان حتى يوم
التقاها يؤمن بأن أجمل الكلمات هي تلك التي لم يقلها بعد ، وأجمل
الساعات هي تلك التي لم يعيشها بعد ، أما الآن ... فهو يريد الواقع ..
يريد أن يحقق واقعاً يؤمن بأنه يرضيه .

تهتف به من جديد : سوف تثبت زهرة حمراء في الجبل .. زهرة
« غردوشكا » جديدة ... هل تذكر ؟

لا يجب . انه لا يستطيع الا أن يذكر كل شيء .. حكايتهما وشم
من جمر في أعماقه .

هدير الطائرات لن يصدقه . لن يصدق انه سيرحل . محرّكاتها التي
بدأت تلور بوحشية تحترق دماغه في كل دورة . لن يصدق انه سيفارق
عبر شعرها . لن يترك يدها الصغيرة تنزلق من بين أصابعه . المضيئة
تمتد على الصعود . سوف تمضي الطائرة وتحلقه . لن ينتزع نفسه من ليل
عينيه المنعم .. ما معنى ان يأتي إذا كان لا يملك الا أن يمضي ؟ انه
يريد أن يبقى هنا في الشاطئ المسحور .. يختار أرضاً صغيرة عند الشاطئ
ويبني كوخاً له ولها .. ويجدل لها الليل والقمر حكايها عذبة مخدرة .. ما
معنى أن يكون إذا كان لا يملك وجوده ؟ جاء بعض المسؤولين يودعونه .
يصافحهم . وجهها الاسمر يغيب في ضباب رمادية . طوق الياصمين خلقت
في عنقه . يا لوحشية أن يكون موظفاً كبيراً .

...

في المقعد الثاني على اليمين يجلس . الطائرة تنين بعذبه . يطير على علو منخفض فوق الشاطئ الذي أحالته زهور الـ «غردوشكا» البيضاء ناصعاً كجنتح حامية . يطير على علو مرتفع فوق الجبل المجاور الذي أحالته زهور الـ «غردوشكا» الأحمر دائماً .. أبدأ لن تنمو زهرة حراء قرب زهرة بيضاء .. هكذا خبرته ذات مرة كأنها تنتحب .

مرة ...

كانا يطيران فراشتين بين تلك الأزهار .. قطف زهرة وأخذ يتأملها .. لاحظ أن وريقاتها التوجيه ليست كاملة . أن كل واحدة هي نصف وريقة فقدت نصفها الأيمن .. أنها زهرة معذبة .. نصف زهرة .. عبت بها يد شريرة وتركتها تنذب نصفها الذي لن يكون والذي ينمو في الجبل المقابل ...

وتطلع الى الجبل المغطى بالأزهار الأحمر ثم استكانت نظراته في ليل عينها المنتم بينا هي تروي له الاسطورة .. اسطورة الغردوشكا ..

في سالف العصور والأزمان ...

عاش في جزيرتنا ملك له ابن مشهور بالطيبة والقوة .. وأحب ولي العهد هذا فتاة من فتيات الشعب اسمها «غردوشكا» لكن تقاليد دهور وقتت بينها .. فحزن الأمير حزناً شديداً وذوى ثم مات .. ودفن في الشاطئ ، مسرح هواهما ، حسب وصيته ، وبعد موته بأيام ماتت «غردوشكا» الصغيرة .. ودفنت بعيداً عنه في الجبل ... وبعد موتها بأيام هبت عاصفة من عويل وأمطار وصواعق .. ولما انجلى ، وخرج الناس من بيوتهم ، وجدوا أن أزهار بيضاء قد غطت الشاطئ . تقابلها أزهار حمر مائلة في الجبل المقابل .. وان توجيات الأزهار البيض قد فقدت نصفها الأيمن وان أزهار الجبل قد فقدت نصفها الأيسر .. ولم يكن بين الزهور البيض زهرة حراء واحدة !

ويومها .. قطفا «غردوشكا» حراء من الجبل ، وغردوشكا بيضاء

من الشاطئ، وحلها معها زهرة واحدة كاملة نصفها أحمر ونصفها أبيض ..
وكان في عينيها حزن مفرج غريب .. أنها تدرك أكثر منه أنها لن
يستطيعا مجاراة المقعد الثاني الى اليمين في الطائرة ، والغرفة رقم ٢١٦ في
باريس ، بأسطورة !

...

باريس وفندق البارون ... والغرفة ٢١٦ .. الفراش الأبيض الذي
يضمه أسود . والجدار الأزرق أسود . والجمرة الصهباء سوداء . ضحكات
الغانية في الغرفة المجاورة سوداء . صوت أجراس الكنيسة أسود . الليل
الأسود أسود ... وهو أسود .. لماذا عشق السواد خطاً أبيض اعترض
حياته مرة ؟ يكاد يختنق . أين عبر شعرها ؟ المدينة الصاخبة ميتة ..
سوف يقرع الجرس ليتأكد من أن في المدينة سواء . سوف يطلب كأس
ماء . سوف يسأل عن الساعة .. عن أي شيء . يرفع سماعة الهاتف ..
يجيبه صوت خشن : تريد ماء ؟ من أنت ؟

— أنا ... أنا لا أحد ... أنا الغرفة ٢١٦ !

...

الى جانب زوجته عاد يرسو .. مركباً صديقاً أنهكته المجاديف الآمرة.
وعند نافذة غرفته ، حيث ينسكب ضجيج الشارع وتهاوت أضواء
الاعلانات ، رأى أن زهرة بيضاء تولد ... وان زهرة حمراء ، نصف
زهرة، تنبت في تلك اللحظة بالذات من صخرة الجبل البعيد في هاواي ..
ويكي الرقم ٢١٦ ...

ما كان أحلى الكلمات التي لم يقلها .. والساعات التي لم يعشها ...
غداً يرحل ثانية الى مكان آخر .. ويمنحونه رقماً جديداً ... متى يتحرر
المركب من مجاديفه ؟
... ويكي الرقم ٢١٦ .

فهرست

۵	الإهداء
۷	نداء السفينة
۱۷	لعنة اللحم الأممر
۲۵	أنساب رجل وحيد
۷۱	عجریة بلا مرفأ
۸۳	القيد والتابوت
۹۵	الاصبع السادسة
۱۰۷	الرجل ذو الهاتفين
۱۲۱	هواية متعبة
۱۲۷	لا بحر في بيروت
۱۵۹	ويكي الرقـم ۲۱۶



قصص وروايات

عيناك قدري (قصص) - (الطبعة العاشرة)

لا بحر في بيروت (قصص) - (الطبعة الثامنة)

ليل الغرباء (قصص) - (الطبعة الثامنة)

رحيل المرافئ القديمة (قصص) - (الطبعة السابعة)

بيروت ٧٥ (رواية) - (الطبعة الخامسة)

كوابيس بيروت (رواية) - (الطبعة السادسة)

ليلة المليار (رواية) - (الطبعة الثانية)

حب (الطبعة التاسعة)

أعلنت عليك الحب (الطبعة التاسعة)

غربة تحت الصفر (الطبعة الأولى)

الأعماق المحتلة (الطبعة الأولى)

أشهد عكس الريح (الطبعة الثانية)

منشورات غادة السمان



الأعمال غير الكاملة

زمن الحب الآخر (قصص) - (الطبعة الخامسة)

الجسد حقيبة سفر (الطبعة الرابعة)

السباحة في بحيرة الشيطان (الطبعة الخامسة)

ختم الذاكرة بالشمع الأحمر (الطبعة الرابعة)

اعتقال لحظة هاربة (الطبعة الخامسة)

مواطنة متلبسة بالقراءة (الطبعة الرابعة)

الرغيف ينبض كالقلب (الطبعة الثالثة)

ع.غ. تتفرد (الطبعة الرابعة)

صفارة إنذار داخل رأسي (الطبعة الثالثة)

كتابات غير ملتزمة (الطبعة الثانية)

الحب من الوريد إلى الوريد (الطبعة الرابعة)

القبيلة تستجوب القتيلة (الطبعة الثانية)

البحر يحاكم سمكة (الطبعة الثانية)

تسكع داخل جرح (الطبعة الأولى)

□ رائعة. رائعة بأملها وجوها. . .

— توفيق يوسف عواد

□ عادة السنان اليوم من ندرة نادرة من

المبدعين الذين استطاعوا أن يواكبوا
عطاءهم الفني الجيد بانتشار جماهيري
واسع النطاق. وأعز السبب في أن
عادة السنان أصبحت نجمة ساطعة في
سماء الأدب العربي إلى أنها لم تتبدل أديما
أو تتركب موجه تيار سياسي، بل حققت
ما حققت بهجتها وذاتها وحرارتها
وموهبتها الأكيدة.

— رياض عصمت

□ عادة. فكر رأي ذاق. ذاق البيع

الأصيل. نبع الحياة. فكان من أصدق
الصيحات في أدبنا العربي الحديث،
وقلم تنطق الحياة الصادقة فيه، فلا
يعرف الريف إليه سبيلا.

— عبد الله عبد الدايم

□ اتفد بك قصص عادة السنان إلى أغوار

للنفس مائجة بالاضطراب والتهب،
وبالتناقض والاضطراب. وحسبها أنها
لا تقف عند ما ترى وتحس بل تحن أبدا
إلى أغوار أعماق وأبعد. وإلى مزيد من
الاحساس براحم الحياة وتضاعف
أضدادها. وحسبها أنها بذلك تشور
فدرا. وأنها لا تريدك أن ترضى عنها أو
أن ترضى عن نفسك. . .

— قسطنطين زريق

□ كاتبة من طراز رفيع. بدأت من القمة

كلدتها مشحونة بدجاجة المرأة العربية. . .
— ياسين رفاعة

